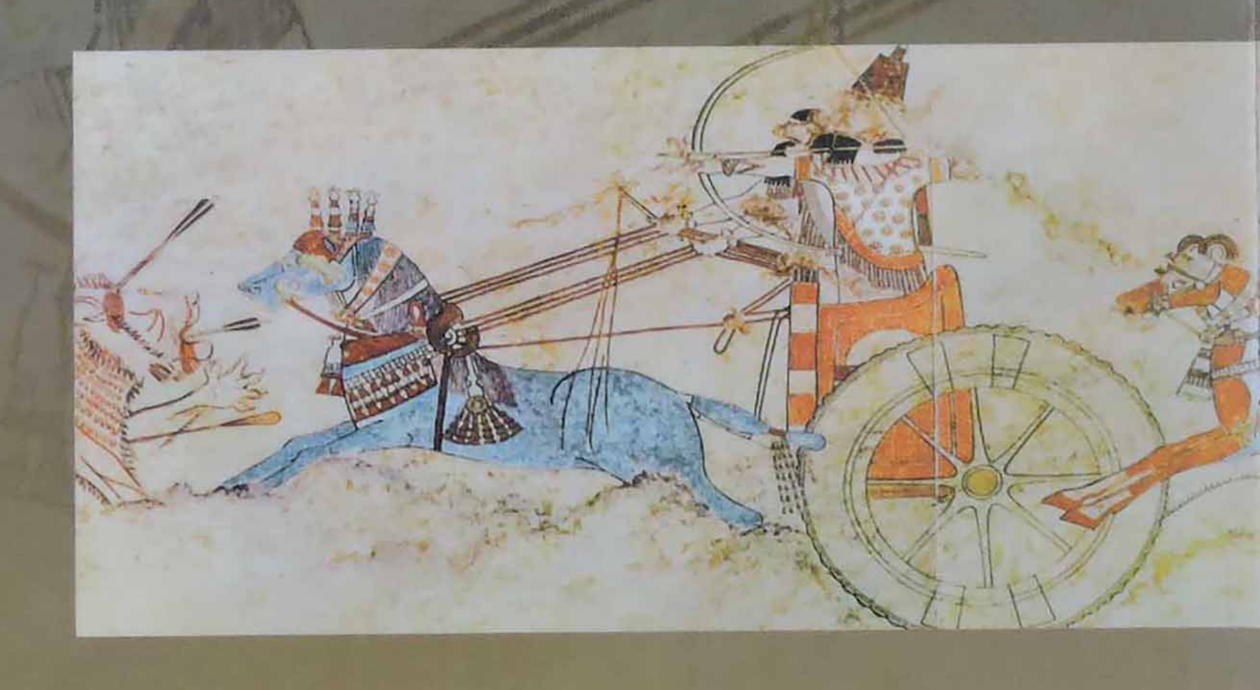
إيفا كانجيك - كيرشباوم

تاريخ الآشوريين القديم



ترجمة: د. فاروق إسماعيل

ايفا كانجيك - كيرشباوم

تاريخ الآشوريين القديم

ترجمة : د. فاروق إسماعيل

دار الزمان

عنوان الكتاب الأصلي:

Eva Cancik-Kirschbaum :

Die Assyrer . Geschichte , Gesellschaft , Kultur .

Verlag C.H.Beck . München 2003 .

تاريخ الآشوريين القديم

تأليف: ايفا كانجيك – كيرشباوم

ترجمة: د . فاروق السماعيل

الطبعة الأولى: 2008 م

الناشر: دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق ـ سوريا: ص . ب 5292

هاتف: 00963 11 5626009

00963 932 806808

تلفاكس: 00963 11 5622363

E.mail: zeman005@yahoo.com

E.mail: zeman005@hotmial.com

الإخراج الداخلي: دار الزمان

طبع بموافقة وزارة الإعلام رقم /97597/ تاريخ 21 / 1 /2008م

كذلك بموافقة خاصة من دار النشر الألمانية Beck

مقدمة

"**سبق الآشوريون الشعوب كلها في فرض سيادتهم بالقوة**" هذا ما كتبه المؤرخ الروماني إميليوس سورا Aemilius Sura في مطلع القرن الثاني ق.م .

إن تاريخ القوى العظمى الإمبريالية يبدأ - لدى المؤرخين القدماء- بالإمبراطورية الآشورية ، وعندما كتب سورا ذلك كان قد مضى على انهيارها أكثر من أربعة قرون ، وتولت السيادة في الشرق الأدنى القديم شعوب أخرى ، هي : الميديون ، الفرس، ثم المكدونيون ، السلوقيون ، البارثيون، ثم انتقلت السيادة أخيراً إلى روما .

لم يكن ذلك رأي سورا وحده، بل رأى كتاب قدماء آخرون أيضاً أن الآشوريين كانوا أصحاب أول نمط من أنماط السيادة ، تميز عن كل الأنماط المعروفة السابقة له باتساعه وعظمته .

ما هي الأسباب التي دفعت إلى هذا التصور ، ومن كان الآشوريون ؟

إن البحث في النصوص الكتابية اليونانية واللاتينية القديمة لا يفيدنا إلا بإشارات قليلة ، وتتمثل أخبارها ببعض التقارير المفصلة عن مدن معينة ، وبذكر أسماء ملوك وملكات ، وحكايات عنهم ، وعن أمور مدهشة تتعلق بهم ، وشعائر وتقاليد خاصة بهم. والمعلومات المتوافرة فيها عن بلاد آشور Assyrien أو عن الآشوريين Assyrer غير متوافقة، بل إنها متناقضة أحياناً . ويبدو أن قسماً كبيراً منها كان يعتمد على حكايات ومرويات شفهية . ويجب ألا نستغرب ذلك ، لأن أقدم هذه المصادر يعود إلى المرحلة التالية لنهاية المملكة الآشورية العظمى والأخيرة .

وثمة مجموعة أخرى من النصوص تروي معلومات وفيرة عن بلاد آشور والآشوريين. ففي أسفار العهد القديم نجد سلسلة من المقاطع التي تتحدث — بشكل متفاوت الوضوح — عن مواجهات تاريخية بين مملكتي إسرائيل ويهودا من ناحية ، وحكام آشور من ناحية أخرى .

ثم تغيب المصادر التاريخية التي يمكن أن تفيد بمعلومات عن بلاد آشور، وتظل معلوماتنا عن البلاد والشعب محدودة . كما إن ما ورد عنهم في المصادر العربية الغنية بالمعلومات ؛ العائدة إلى العصور الوسطى ، وكذلك في تقارير بعض الرحالة المستشرقين ، قليل الفائدة ، ويقتصر على ذكر أسماء أمكنة وسرد حكايات محلية .

ظهرت مصادر معلومات جديدة عنهم مع بدء التنقيبات الأثرية في بلاد الرافدين في القرن التاسع عشر الميلادي. فقد أسفر اكتشاف المدن الرئيسة في المملكة الآشورية عن مكتشفات أثرية وفيرة متنوعة (قصور ملكية، بيوت سكنية، معابد وتجهيزاتها، مدن كاملة ، أدوات الحياة اليومية، أدوات وأعمال تزيينية كمالية منوعة ، مكتبات وأرشيفات وثائق ضمت نصوصاً كتابية ضخمة العدد) .

ومع فك أشكال الكتابة المسمارية ، وانتظام أعمال البحث الأثري في الشرق القديم برزت في دائرة الضوء دلائل مميزة خاصة عن حضارات كانت معروفة من قبل من خلال مصادر ثانوية فقط، كما ظهرت معلومات عن مجموعة شعوب كانت مجهولة تماماً . ودراسة تلك الحضارات مرتبط بتحديات منهجية كبيرة ، أبرزها ضرورة إدراكنا الدائم للفارق الحضاري والبعد الزماني عنها .

إن دراسة تاريخ الآشوريين تعني التمعن في إطار زمني يمتد قرابة ألف وخمسمائة سنة. وعلى الرغم من غنى المصادر وتنوعها بشكل كبير، فإنها متفاوتة جداً من حيث توزعها ونوعيتها . ولذلك فإننا ما نزال نجد أنفسنا أمام فترات تاريخية غير واضحة المعالم ، لقلة مصادرها أو غيابها التام . وبالمقابل توجد أحياناً معلومات تساعد على تعقب مصير عدد من الشخصيات، ومعرفة نشاطات بعض المؤسسات، بشكل مفصل.

وبشكل عام، تنعكس مظاهر المجالات الحضارية والاجتماعية المتنوعة في المصادر، بشكل مختلف جداً عن بعضها . ويعود هذا الوضع بالطبع أحياناً إلى عامل المصادفة في عملية الكشف عن المصادر الأثرية والكتابية ، وإلى الجوانب التي تركز عليها التنقيبات الأثرية . كما إنه يرتبط بطبيعة الأوضاع في ذلك الزمن ، فعملية إتقان الكتابة كانت تقتصر على قسم صغير من الشعب فقط ، كما كان استخدامها وانتشارها محدوداً .

ينصبّ اهتمام هذا الكتاب بالدرجة الأولى على التاريخ السياسي، الذي يشكل الأساس في العرض ، ولكن الدافع إلى ذلك هو البحث في الظروف والآليات التي أسهمت في أن تحتل بلاد آشور مركزاً متقدماً في تاريخ الممالك الكبرى القديمة . وإلى جانب ذلك يجب ألا نغفل أن "بلاد آشور" لم تكن منعزلة إطلاقاً ، بل كانت جزءاً من إطار حضاري أكبر بكثير، هو الذي نعنيه بمصطلح "الشرق الأدنى القديم". وتاريخ بلاد آشور هو جزء من التاريخ العام والمحدّد لهذا الإطار، وكذلك أوضاعها الخاصة ، وتطوراتها الحضارية ، وتأثيراتها في مجرى التاريخ .

هذا الجهد المبذول في عرض تاريخ بلاد آشور وحضارتها لا يخلو من نواقص، ومن فرضيات أحياناً ، ومن أحكام أحادية الجانب أحياناً أخرى. كما إن مجالات مهمة من التاريخ الحضاري الآشوري لا يمكن الحديث عنها إلا بشكل مستقل منفصل ، وبقيت أمور كثيرة منها لم يتحدث عنها الكتاب . ولكننا نأمل أن يقدم هذا الموجز انطباعاً وافياً عن أوضاع الكيانات السياسية في الشرق الأدنى القديم وإمكاناتها وحدود قدراتها .

أتقدم بالشكر إلى الأصدقاء والزملاء على مناقشاتهم وانتقاداتهم ، كما أشكر العاملين في دار النشر C.H.Beck ولاسيما السيد شتيفان فون در لار Stefan von der Lahr على إشرافه وصبره .

وأخيراً لابد من توضيحات تتعلق بنص الكتاب ، وهي :

- **التواريخ التي تحدد سنوات حكم الملوك الآشوريين المذكورين تعتمد على الجدول التاريخي الموجود في آخر الكتاب.**
- **تتفق صيغ أسماء الأمكنة والشعوب والآلهة والأشخاص المستخدمة في الكتاب مع الشائع في البحوث الألمانية ، ولذلك فإن قسماً منها يختلف عن صيغها الأصلية في الكتابات المسمارية ؛ مثلاً اسم الملك سنحريب Sanherib بدلاً من الأصل سين أخي إريبَ Sin - ahe - eriba ، واسم العاصمة آشور Assur (بالسين) بدلاً من الأصل Aššur (بالشين) .**

- (...) قد توجد ضمن النصوص الأصلية المستشهد بها ، وتدل على إهمال ذكر جمل أو مقاطع منها .
- ( ) الكلام الموجود بين قوسين مضاف لتوضيح النص .
- [ ] الكلام الموجود بين مثل هاتين الحاصرتين مضاف أو مقدّر في موضع مهشم من النص .

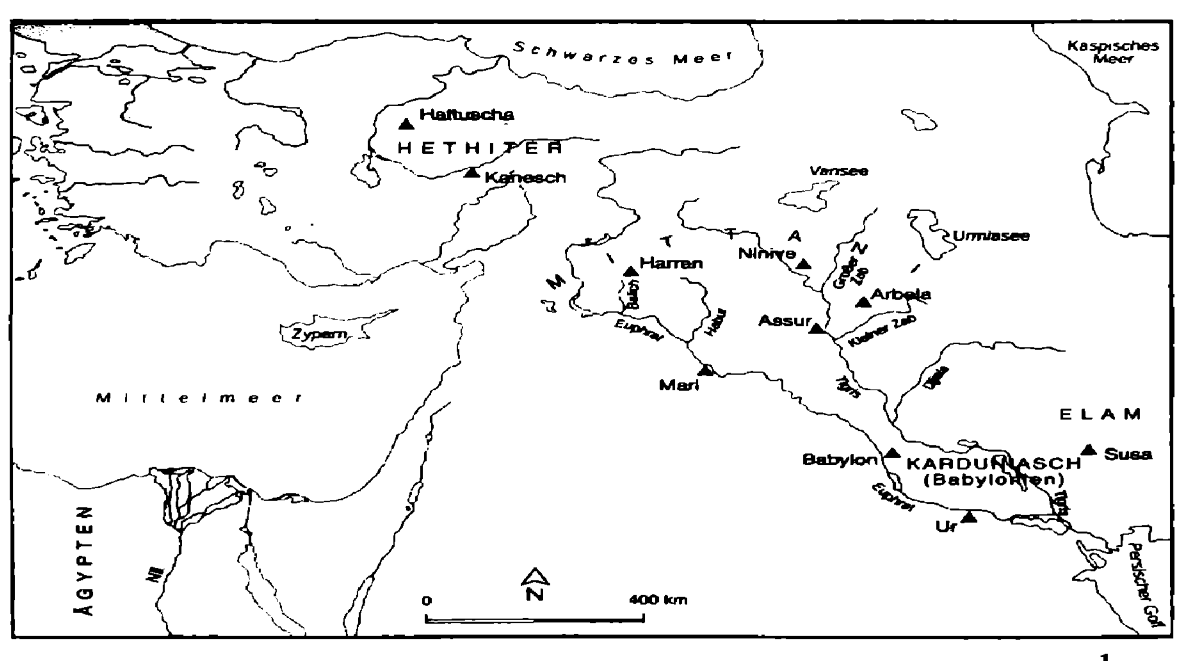


الطبيعة والمصادر

آ- الجغرافيا والبيئة :

يدل مصطلح " بلاد آشور Assyrien " في الاستخدام اللغوي المعاصر على إطار جغرافي — تاريخي ، يشكّل جزءاً من موطن حضارات الشرق الأدنى القديم ، وبشكل محدد جزءاً من بلاد الرافدين القديمة Mesopotamien .

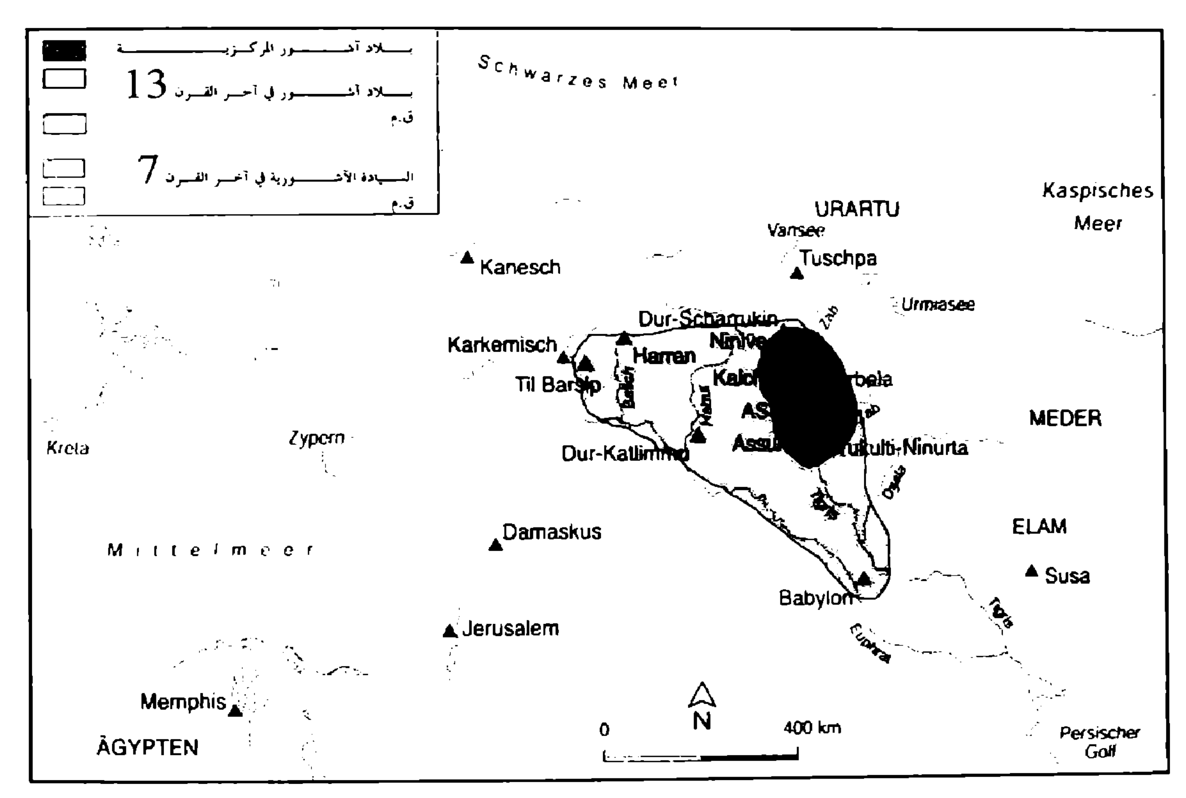
كان مصطلح بلاد الرافدين يدل في الأصل على القسم الشمالي من المنطقة التي يجري فيها النهران الكبيران : الفرات ودجلة . وفي القرن الأول الميلادي اتسعت الدلالة الجغرافية للمصطلح ، وصار يشمل القسم الجنوبي حتى الخليج العربي أيضاً . تحدّ بلاد آشور من الشمال سلاسل طوروس الجبلية ، ومن الشرق سهول بلاد الرافدين الرسوبية الواسعة والمتصلة بامتدادات هضاب زاكروس الإيرانية، ومن الغرب مناطق البادية السورية — العربية. وعلى الرغم من هذه الحدود الطبيعية لها ، فقد تمتعت دائماً بعلاقات وثيقة مع سائر مناطق بلاد الرافدين المجاورة ، بل مع مناطق حضارية بعيدة جداً أيضاً (انظر المصور 1) .



(1)

كان مصطلح "بلاد آشور" يشكل - في المدلول الجغرافي السياسي والحضاري - مقابلاً لمصطلح " بلاد بابل Babylonien " . ويشير الأول إلى القسم الشمالي من بلاد الرافدين ، والثاني إلى القسم الجنوبي منها .

وفي الدلالة التاريخية المحددة الضيقة؛ يدل "بلاد آشور" على كيان سياسي كانت مناطقه المركزية الأساسية تمتد غربي دجلة وشرقيه، بين نهري الزاب العلوي (الكبير) والزاب السفلي (الصغير). هذا إذا استبعدنا جانباً اتساعاته الجغرافية التي بلغها عبر قرون من الزمن . وبذلك يتوافق إطار المناطق المركزية لبلاد آشور بين محيط المدن (نينوى ، أربيلا ، آشور) مع الوضع الحالي في شمال العراق (انظر المصور 2) .



(2) **المراحل المختلفة لتوسع المملكة الآشورية خلال الألفين الثاني والأول ق.م**

إن لأشكال الاستخدام المختلفة للاسم Assyrien جذورها في الماضي . فصيغة الاسم مأخوذة من اليونانية ، وكان اليونان قد أخذوه بدورهم من الصيغة الأكّدية mat Aššur بلاد (مدينة أو الإله) آشـور ، وعدّلوه بشكل يتناسب مع لغتهم

الخاصة. واستخدموه — بالدرجة الأولى — للدلالة على المقاطعة المنضوية تحت سيادة آشور . ولم يكن لاستخدامه في المصادر الكلاسيكية أي بُعدٍ عرقي .

كانت الشعوب الخاضعة للسيادة الآشورية تابعة لآشور ، ويسمى أفرادها "آشوريين " أيضاً . ولكن الكتّاب اليونان ثم اللاتين استخدموا مصطلح بلاد آشور بشكل غير موحّد ، فقد عنوا به في كتاباهم شمالي بلاد الرافدين أحياناً ، وبلاد الرافدين كله أحياناً ، كما أطلقوه على المناطق السورية أحياناً أخرى .

لقد ظلت التسمية Assyrien مستخدمة بعد انهيار آخر مملكة يحكمها ملك آشوري ، في سنة 609 ق.م . وحتى في العصر الروماني القيصري كانت هناك مقاطعة بالاسم نفسه تذكر بين الممالك المختلفة ، ويتفق اتساعها الجغرافي جزئياً مع مناطق بلاد آشور المركزية السابقة ، وقد تعرضت بمرور الزمن لتغيرات قوية .

تتصف المنطقة الواقعة في أعالي نهر دجلة، شمالي آشور، بتناوب السهول المنبسطة والمرتفعات الجبلية. وتحدها من الشرق امتدادات جبال زاكروس. وفي غربي آشور تمتد بين نهري دجلة والفرات باديةٌ تسمى اليوم " الجزيرة " ويخترقها أهم رافدين من روافد الفرات ، وهما الخابور والبليخ ، وقد كانا خلال العصور القديمة يجريان طوال أيام السنة .

كانت الظروف المناخية تسمح بممارسة الزراعة البعلية في شتى أرجاء مناطق شمالي بلاد الرافدين ، ولكن الجفاف بات ينتشر فيها حالياً . وبينما يبدو أن مستوى المياه الجوفية قد انخفض في منطقة الخابور ؛ لأسباب عدة أبرزها بناء أحواض تخزينية مائية حديثة ، فإن مناطق شرقي دجلة مازالت تختزن مياهاً فائضة عن الحاجة .

وتفيد النصوص الكتابية القديمة والمكتشفات الأثرية والدراسات العلمية المتعلقة بالأوضاع البيئية في الشرق القديم ، بأنه كان هناك ، قبل أربعة آلاف سنة ، غطاء نباتي كثيف نسبياً في مناطق البادية أيضاً . كما كانت التلال والمرتفعات مكسوة

بالأشجار ، وتوفر الأحراش الكثيفة والشجيرات الموجودة على ضفاف الأنهار إمكانية التغذية والمأوى لعدد كبير من الحيوانات .

ب- المجموعات البشرية :

كانت المنطقة الواقعة بين الفرات ودجلة مأهولة بمجموعات بشرية مختلفة تتحدث بلغات متقاربة، عرفت فيما بعد بـ "اللغات السامية". وكانت مجموعات أخرى تنتقل من مناطق غربي الفرات إلى هناك ، بين حين وآخر .

وصلت مظاهر الحضارة السومرية إلى شمالي بلاد الرافدين ، منذ أواخر الألف الرابع ق.م، وبشكل خاص عبر طرق القوافل التجارية. وظهرت شبكة من المحطات التجارية التي تربط دويلات المدن في جنوبي بلاد الرافدين مع المناطق الشمالية البعيدة . وبذلك انتقل نظام التدوين الكتابي، واللغة السومرية وتقاليدها الكتابية إلى الشمال — مع البضائع التجارية المتنوعة — وذلك في زمن مبكر نسبياً ؛ هو الألف الثالث ق.م .

تعدّ اللغة السومرية لغة إلصاقية، ومازال أصلها مجهولاً. انتشرت بشكل أساسي في مناطق جنوبي بلاد الرافدين ، التي عُرفت باسم "بلاد سومر" ، وكانت تقوم فيها دويلات مدن كبرى ، مثل أوروك وأور . وتجدر الإشارة إلى أننا لا نعرف معلومات عن استخدام اللغة السومرية في شمالي بلاد الرافدين ، خارج إطار المدن المركزية التي شاعت فيها التقاليد الكتابية .

منذ أواخر الألف الثالث ق.م ظهرت في شمالي بلاد الرافدين ، مجموعة بشرية أخرى صارت تعرف في النصوص الكتابية اللاحقة زمنياً باسم " الحوريون " . قَدِم الحوريون من المناطق الجبلية الواقعة شمال شرقي بلاد الرافدين إلى مناطق السهول المنخفضة . ولا ترتبط لغتهم " الحورية" بأية صلة بسائر اللغات المعروفة التي كانت شائعة في الشرق الأدنى القديم ، ولكنها تتضمن — مثل اللغة الأورارتية التي كانت خلال الألف الأول ق.م شائعة في المناطق المحيطة ببحيرة وان — مجموعة مظاهر لغوية متشابهة مع اللغات القوقازية الشمالية الشرقية .

كانت مناطق استيطان الحوريين أول الأمر في منطقة شرقي دجلة ، وفي أرجاء مناطق الخابور العليا في شمال سورية . وتشير المكتشفات الأثرية والنصوص الكتابية إلى وجود إمارات محلية صغيرة لهم ، لا نعرف بعد بشكل جيد طبيعة صلاتها بالكيانات السياسية المختلفة التي كانت قائمة في بلاد الرافدين ، في أواخر الألف الثالث ومطلع الثاني ق.م .

وخلال القرن السادس عشر ق.م نشأت مملكة حورية قوية، سادت في أجزاء بلاد الرافدين العليا، وهي مملكة ميتّاني . وبذلك أصبح الوجود الحوري منتشراً في جميع أرجاء الهلال الخصيب .

أما في بلاد الأناضول فقد استقرت - إلى جانب شعوب محلية مستقرة هناك أصلاً – مجموعات بشرية كانت تتكلم بلغات هندوأوربية ، وقد هاجرت إلى بلاد الأناضول منذ نحو 2300 ق.م على شكل موجات عدة . وكان أهمها الحثيون الذين استطاعوا في أواسط الألف الثاني ق.م توسيع مناطق سيادتهم نحو الجنوب ، وصاروا يعدّون من القوى السياسية العظمى في تلك الفترة .

وسط هذا الامتزاج الحضاري في أعالي مجرى نهر دجلة ؛ بدأ تاريخ بلاد آشور أيضاً .

ج- أشكال المصادر التاريخية :

من يريد أن يتعمق في فهم تاريخ بلاد آشور، عليه أن يتحقق أول الأمر من أشكال المصادر التاريخية التي يمكن أن تقدم معلومات عن الجوانب الحضارية والاجتماعية .

تتمثل تلك المصادر بشواهد أثرية ضخمة أبدعت – بشكل مباشر ، أو غير مباشر – نتيجة تأثير الإنسان وسيطرته على بيئته ، ومنها مثلاً شواهد عمرانية ومستوطنات وطرق، وكذلك بقايا تصنيع المواد الخام، وأساليب الزراعة، والتغيرات التي طرأت على مجاري الأنهار .

إن دراسة هذه الشواهد المكتشفة وما يتصل بها من لقى أثرية ، تساعد على استخلاص معلومات عن التقنيات المستخدمة فيها وأساليب استخدامها، وكذلك

– ولو بشكل محدود – على فهم جوانب من الحياة الاجتماعية. كما يمكننا تكوين تصورات عن أساليب الملاحظة والاستجابة لدى الإنسان في هذا الإطار الحضاري، وصراعه مع بيئته، وتصوراته المستخلصة من ذلك؛ وذلك من خلال دراسة أساليب إنتاج الأدوات اللازمة في الحياة اليومية ، والإبداعات الذاتية ، والقطع الكمالية ، ومستلزمات أداء الشعائر الدينية .

وتعدّ الأدوات المنزلية والقطع الفخارية وأدوات العمل والمدافن من أهم أنواع المكتشفات الأثرية ؛ إلى جانب الشواهد العمرانية . ويضاف إليها – في المستويين المحلي والخارجي – ما يستخلص من دراسة أنماط الاستيطان ، وطبيعة المناطق الأثرية ، كما إن دراسة تكوينات الطبيعة وعناصرها توفر معلومات دقيقة عن الظروف البيئية ، وتقنيات الإنتاج ، ومصادر المواد الخام .

أما المصادر الكتابية فهي تزيد وتوسع نطاق المعلومات المستخلصة من دراسة اللقى الأثرية المكتشفة . وتتميز بأنها تفيد في فهم أمور لا يمكن أن تتضح في الدراسات الأثرية وحدها ، كما إنها لا تفي بالغرض وحدها ؛ دون المكتشفات الأثرية . فمن خلال النصوص الكتابية نحظى بتصورات شاملة عن الاقتصاد والإدارة والمسائل القانونية والمعتقدات الدينية والأدب والعلوم وغير ذلك. ومنها نفهم طبيعة تنظيم المدارس ، ونتعرف على أشكال الخلاف حول الميراث . وهي تضم أساطير ذات نسيج إبداعي فني ، ورسائل لطلب العون، ونصوصاً طويلة مفصلة عن مآثر الملوك وأعمالهم ونصوصاً طبيّة تشخيصية، وتعليمات تصف طريقة صناعة الزجاج .

إن عملية فك رموز الكتابة المسمارية التي ندين لها بالفضل في الحصول على هذه المعارف ، تمت على عدة مراحل؛ بعد منتصف القرن التاسع عشر الميلادي بقليل . وتسمية "الكتابة المسمارية " مستمدة من الطابع الشكلي لهذا النظام الكتابي، حيث تبدو أشكاله مركبة من خطوط قصيرة في هيئة مسامير .

تطورت الكتابة المسمارية عن أشكال كانت في البداية صورية محضة ، نُقشت بالضغط في كتل طينية رطبة . وتعود أقدم النماذج الكتابية الصغيرة والمختصرة إلى

النصف الثاني من الألف الرابع ق.م، وقد تطورت في جنوبي العراق نتيجة ازدياد مجالات إدارة الاقتصاد وتشعبها .

انتشر هذا الإبداع الحضاري بشكل سريع ، واتسع نطاق استخدامه خارج المجالات المرتبطة بالاقتصاد . ثم طرأ عليه تطور آخر، من حيث تقنيات الكتابة وأساليب رسم العلامات الكتابية، حتى انتهى أخيراً بالأشكال التي نصفها حالياً بالمسمارية .

كانت المادة المستخدمة في البداية هي الطين (الطري) الموجود بوفرة في معظم مناطق بلاد الرافدين ، ولكن مواد أخرى استخدمت بعد ذلك في الكتابة عليها أيضاً ، مثل : الحجر ، المعدن ، الشمع الخام ، وربما على الخشب أيضاً .

كُتبت النصوص باللغة السومرية منذ المراحل الأولى لتطور الكتابة ، وكذلك طوال الألف الثالث ق.م كله؛ لأنها كانت اللغة الغالبة في جنوبي بلاد الرافدين. ثم برزت لغة أخرى سامية، إضافة إليها وهي اللغة الأكّدية.

لم يبق انتشار الكتابة المسمارية محصوراً في بلاد الرافدين وحدها. فقد أبدع في زمن مبكر في مناطق عيلام الواقعة شرقي الجنوب الرافدين نظام كتابي مسماري خاص. وفي أواسط الألف الثالث ق.م استخدمت المسمارية في مملكة إبلا في شمل غرب سورية، وفي أواسط الألف الثاني ق.م تبنى الحثيون هذا النظام الكتابي في تدوين لغتهم الخاصة، وهي اللغة الحثية التي تصنّف ضمن اللغات الهندوأوربية . كما استخدم الحوريون الكتابة المسمارية، وفي أوجاريت المرفأ التجاري على ساحل المشرق المتوسطي أبدعت كتابة مسمارية في أشكالها، أبجدية في نظامها الصوتي. وأخيراً، في الألف الأول ق.م، استعار الأورارتيون في شرقي الأناضول الكتابة المسمارية، ثم بعد ذلك الفرس أيضاً، وأوجدوا أشكالاً خاصة .

ويعود أحدث نص مسماري مؤرخ مكتشف في بلاد الرافدين إلى أواخر القرن الأول الميلادي . ويفترض أنه ظلت هناك مجموعات فيما بعد كانت تمتلك خبرات في مجال الكتابة المسمارية. وعلى الرغم من أن أنظمة الكتابة المسمارية باتت معروفة جداً نسبياً — حسب كمية المصادر الكتابية المتوافرة — ودُرست نصوصها بشكل

كاف من الناحية المعجمية ؛ فإن كثرة اللغات المختلفة التي دُوِّنت بها تجعل عملية فهمها وإمكانية ترجمتها أمراً صعباً، إضافة إلى على الصعوبات الموجودة في مضمونها.

د- لغات وكتابات في التاريخ الآشوري

إن ما وصلنا من مصادر كتابية من بلاد آشور وفير ، ومتنوع في موضوعاته ، ومتعدد في لغاته . وهو يعكس صلات وثيقة بالنصوص الكتابية المكتشفة في جنوبي بلاد الرافدين ، ويشمل ذلك النصوص الأدبية كالأساطير والملاحم والتراتيل والكتابات التعليمية ، وكذلك قسماً من النصوص الشعائرية الدينية .

أما النصوص التي تتضمن تقارير عن أعمال الملوك — وهي التي نستقي منها معلوماتنا عن سلوك الحكام وممارساتهم - فقد صيغت - بخلاف النصوص السابقة - بأساليب خاصة ، وهي لا تتميز بغنى الموضوعات والميل إلى أسلوب الحكايات الإخبارية فحسب ؛ بل بالتنوع الكبير للمواد التي دوّن الكتّاب عليها .

وإلى جانب النقوش المحفورة في القطع الحجرية، والرقم الطينية البسيطة، وصلتنا نقوش كتابية للحكام مدونة على أختام طينية ومسلات طينية وجرار صغيرة طينية، وكذلك على معادن نادرة وأحجار نفيسة .

تكتسب النصوص الاقتصادية والإدارية، والوثائق القانونية ، والنصوص التي تصور مجريات الحياة اليومية ، أهمية مميزة ضمن مصادر تاريخ بلاد آشور . وهي بعكس تقارير الأعمال الرسمية الاستعراضية للحكام ، تبدو للوهلة الأولى وثائق سقيمة خاوية ، وليست ذات قيمة تاريخية ، ولكنها تعدّ في الحقيقة أفضل المصادر التي تفيد في معرفة الأوضاع المعيشية للناس؛ وذلك إلى جانب المكتشفات الأثرية المادية .

ويلاحظ في مجال مصادر الحياة اليومية أن الآشوريين أوجدوا تقاليد خاصة بهم، ولذلك تتميز العقود القانونية الآشورية، من حيث أسلوب الصياغة والمضمون، عن مثيلاتها المعاصرة لها في بلاد بابل. وقد صيغت أغلب النصوص الاقتصادية والإدارية؛ وكذلك رسائل كثيرة ، بأسلوب لغوي أكّدي خاص شاع في بلاد آشور .

وتميز البحوث العلمية – اعتماداً على المظاهر النحوية والمعجمية – بين لهجتين أساسيتين في اللغة الأكّدية ، بعد مرحلتها المبكرة القديمة . وتسمي الأكّدية التي كانت شائعة في جنوبي بلاد الرافدين اللهجة البابلية ، والتي شاعت في مناطق بلاد آشور اللهجة الآشورية . ويمكن التأكيد أنه وجدت ضمن بلاد الرافدين لهجات محلية كثيرة استخدمت في أطر ضيقة، ولم تظهر ملامحها في المصادر الكتابية .

أما اللغة السومرية التي كان يتحدث بها سكان مناطق جنوبي بلاد الرافدين خلال الألف الثالث ق.م، فقد تأثرت بانتشار الأكّدية ، بدءاً من مرحلة الانعطاف من الألف الثالث إلى الثاني ق.م، وتراجعَ انتشارُها، وأضحت بمرور الزمن مجرد لغة شائعة بين المتعلمين .

وتتمتع البابلية ضمن المصادر المدونة التي وصلت إلينا بمكانة مهمة متميزة، لأنها كانت لغة التقاليد التعليمية والأعمال الأدبية المروية . ولذلك نجد أن الملوك الآشوريين أمروا بأن تكتب معظم نقوشهم الكتابية الرسمية بالأكّدية البابلية ؛ وبها كتبت التراتيل الدينية وقصائد المدح أيضاً .

برز التأثير المتزايد للغة الآرامية في بلاد آشور خلال الألف الأول ق.م. ولا يمكن حصر تفسير هذا التطور بهجرة مجموعات آرامية نحو الشرق منذ أواخر الألف الثاني ق.م ، بل لابد من التأكيد على إن توسع المملكة الآشورية جغرافياً أسهم في ذلك بشكل أكبر . فقد أدت سياسة التهجير التي اتبعها الملوك الآشوريون إلى انتقال مجموعات بشرية ناطقة بالآرامية إلى أجزاء أخرى من المملكة، ونتج عن ذلك بدوره دخول مفردات آرامية في اللهجة الآشورية، وبدءُ مرحلة من الازدواج اللغوي (الآشوري – الآرامي) ؛ ولاسيما في المناطق الشمالية الغربية من المملكة . وقد كشف هناك عن نصوص كتابية ثنائية اللغة ، كتبت بالأكّدية مرة ، وبالآرامية مرة أخرى. وفي القرن الثامن ق.م - على أقل تقدير - دُوّنت وثائق في البلاط الآشوري باللغة الآرامية .

أثبت النظام الكتابي المرتبط باللغة الآرامية وجوده وسرعة انتشاره، اعتماداً على خاصية متميزة فيه ساعدته على أن يطغى على نظام الكتابة المسمارية؛ بمرور الزمن، ونعني بذلك طابعه الأبجدي المتمثل بعدد قليل جداً من الأشكال الكتابية ؛ مقارنة

بأعداد الأشكال المسمارية المقطعية أو الرمزية ؛ ولو أن هذه اختصرت كـــثيراً في المراحل الأخيرة .

كانت أشكال الحروف الآرامية مدوّرة بشدة، بخلاف الخطوط المسمارية. ولذلك لم تكن مناسبة لتدوينها على الطين الطري، وفضّل الكتّاب الكتابة على مواد أخرى قاسية مثل الخشب والجلد والبَرْدي. كما إن التمكن منها لم يكن يتطلب كالمسمارية عملية تعلم طويلة الأمد، ولذلك غدت القراءة والكتابة الآرامية أمرين سهلين نسبياً. ولا يتعارض هذا مع حقيقة أن عدد النصوص المسمارية المكتشفة في بلاد آشور هو أكبر بكثير من النصوص الآرامية ، لأن معظم النصوص الآرامية دونت على مـــواد قابلة للتفتت والزوال ، ومازال القسم الأكبر منها مفقوداً .

هـ- التسلسل التاريخي (كرونولوجيا)

تعد عملية ترتيب التسلسل التاريخي لتفاصيل تاريخ الشرق الأدنى القديم مـــن المسائل الصعبة ، وقد كانت لجميع ممالك الشرق القديم الكبرى مناهجها وأساليبها الخاصة في التقسيمات والحسابات الزمنية .

إن الأساليب الخاصة لتحديد الزمن، والمصطلحات، وعمليات حساب الفترات الزمنية أمور أساسية لا غنى عنها في المجتمعات المتطورة القديمة، ولكن لـــيس مـــن الممكن لنا دائماً أن نوافق ونجري معادلة محددة بين أنظمة التحديد الزمني الخاصـــة آنذاك وأنظمتنا المعاصرة في حساب الزمن. كما إنه مازالت هناك حقـــب زمنيـــة غامضة، أو يصعب تحديد أطرها؛ ضمن عمليـــة تـــصنيف التسلـــسل التـــاريخي (كرونولوجيا)، ومن ثم فإن ذلك يؤثر في تحديد ترتيب الأحداث التاريخية أو بيان تعاصرها. ولعل المفيد في الأمر هو توافر أرقام ومعلومات محددة يمكن ربطها مـــع نقاط زمنية ثابتة عبر صيرورة الزمن، وتتوافق مع مفاهيمنا المعاصرة عن الحسابات الزمنية .

يعود الفضل في إظهار الصلة والترابط بين تاريخ الشرق القديم وتاريخ منـــاطق حوض البحر الأبيض المتوسط إلى المؤرخين والمهتمين بالتصنيف التاريخي للأحداث خلال العصور الكلاسيكية. الذين عرضوا في كتاباهم معلومات دقيقة عما سبقهم،

تعود إلى القرن السابع ق.م . ولعل من أبرزها ما أورده كلاوديوس بطليموس الإسكندري في مؤلّفه المسمى "القانون Kanon" من ترتيب متسلسل لملوك السلالة البابلية المتأخرة ، وتليها سلسلة الملوك الأخمينيين ثم ملوك العصر الهلنستي .

أما لدى الآشوريين فيجدر ذكر وثيقتين مهمتين في هذا السياق ، وهما : قائمة الملوك الآشورية ، قانون الولاة Eponymenkanon وهو فهرس بأسماء الموظفين الآشوريين السنويين. وبالاعتماد عليهما يمكن وضع أسس زمنية ثابتة نسبياً لتاريخ بلاد آشور حتى حوالي أواسط الألف الثاني ق.م . كما يمكن تأريخ أحداث تاريخية محلية أخرى ، أو أمور تتعلق بأشخاص ، بوساطة تحديد جوانب تدل على التعاصر وتساعد — بشكل غير مباشر — على التأريخ الدقيق .

تشكل قائمة الملوك الآشورية العنصر الأساسي لعملية تصنيف التسلسل التاريخي في الشرق القديم ، فيما يتعلق بأحداث تلك الحقبة وتطوراتها . أما قسم القائمة المتعلق بما قبل أواسط الألف الثاني ق.م ففيه نواقص، وتعارض بين نسخها المختلفة المكتشفة ، وكذلك اختلافات ترتيبيته عن وثائق مناطق أخرى ، يبدو التسلسل التاريخي المعروض فيها مؤكداً .

ولا تتمتع الحسابات الزمنية الدقيقة المستقاة من الأحداث الفلكية النادرة ، مثل كسوف الشمس، بتأكيدات جازمة . لأن كثيراً من الحقب الزمنية غالباً ما كانت تشهد حدوث ظواهر طبيعية متماثلة مرات عدة .

أدى هذا الوضع المضطرب إلى ظهور عدة مناهج مستخدمة في عملية تصنيف التسلسل التاريخي (كرونولوجيا) في البحث العلمي ، وذلك بما يتعلق بأحداث النصف الأول من الألف الثاني ق.م ، ومن ثم بالحقب التاريخية السابقة لذلك أيضاً. ولذلك توجد أحياناً اختلافات رقمية واضحة في المؤلفات التاريخية المعاصرة، لدى عرض أخبار المراحل التاريخية السابقة لأواسط الألف الثاني ق.م. ولكن العلاقة النسبية بين الأحداث الحاصلة لا تتأثر بمشكلات التأريخ هذه.

وفي هذا الكتاب تم اعتماد المنهج المسمى بالمنهج الوسيط ، وقد حرصنا — عند الضرورة — على ذكر الأرقام الموازية المعتمدة في المنهج القصير الذي يلقى انتشاراً في البحث العلمي أيضاً ، وذلك بإضافتها ضمن قوسين .

وبعيداً عن هذه المشكلات الدقيقة في عملية تصنيف التسلسل التاريخي للشرق القديم ، يمكن بشكل نسبي وبوساطة تركيب تواريخ مؤكدة إعادةُ حساب زمن كثير من الأحداث المحددة المذكورة في المصادر الكتابية ؛ والوصول إلى أرقام محددة جازمة ، ومنها أنه يمكن تحديد فترة حكم الملك الآشوري أدد نيراري الثاني التي دامت عشرين سنة بين (911-891 ق.م)، وذلك اعتماداً على نصوص آشورية تتحدث عن حملة له مؤرخة بالسنة الثامنة من فترة حكمه .

إن الدقة الظاهرة في الأرقام المستخلصة بهذه الطريقة يجب ألا تضللنا وتنسينا أنه مازال هناك غموض كبير حول حقب معينة بسبب قلة مصادرها الكتابية وضعفها. كما إننا لا نستطيع حتى الآن تكوين تصور تفصيلي مقبول عن أحداث كثير من السنوات المتفرقة . وتوجد من ناحية أخرى حقب زمنية طويلة نكاد لا نعرف عنها شيئاً .

و- إمكانات وحدود :

مما سبق عرضه من إشارات مقتضبة إلى سمات خاصة لمصادر كتابة تاريخ الشرق القديم، يتضح وجود إمكانات محددة وحدود معينة لتقديم عرض تاريخي حضاري .

إن المصادر المتوافرة — على الرغم من وفرتها وتنوعها الكبيرين — لا تساعد على توثيق سوى جزء محدود من موضوع البحث . وتظل أبواب جوانب كثيرة موصدة أمامنا تماماً ، على الرغم من اهتمامنا وجهودنا . وذلك نظراً للبعد الزمني والحضاري الذي يفصلنا عن أناس ذلك العصر ، ويضع حدوداً صارمة ضيقة لإمكانات فهمنا لهم .

ولذلك فإن هذا الكتاب الصغير الذي يتعرض لتاريخ الآشوريين ومجتمعهم وحضارتهم ، لا يمثل سوى مخطط أولي عام نُفّذ للحاجة إليه، واعتماداً على مصادر ليست كاملة، وإنما تمثل ما وصل إلينا حتى الآن من خلال المكتشفات الأثرية .

2

آشــور

مراحل الاكتشاف من جديد

آ- البدايات :

" ألقيتُ نظرة طويلة من عند الأسوار على سهل فسيح يمتد من الغـرب نحـو الفـرات ، وتضيع ملامحه في المدى البعيد. كانت أطلال المدن والقرى القديمة تشمخ في جميع الجهات، وعندما بدأت الشمس تغيب ؛ عَدَدْتُ أكثر من مئة تل أثـري كـان كـل منهـا يلقـي بظلالـه المظلمة والمديدة على السهل. لقد كانت تلك التلال بقايا معالم الحضارة الآشورية ...".

بهذه الكلمات يصف البريطاني اوستن هنري ليارد Austen Henry Layard، في حوالي منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، انطباعاته الأولى عن طبيعة المنطقـــة التي كانت تشكل قديماً مركز حضارة عظمى .

وفي تلك الفترة كان قد بدأ السباق حول اكتشاف بلاد آشور القديمة . وكان هذا التصور العام مؤثراً حقاً ، ولدى التجول في المنطقة وتأملها عن قرب بـــدت أطلال المدن الآشورية القديمة وكأنها مرتفعات ضخمة من التراب والرماد . ويذكّر طول النظر إليها بالأقوال الحكيمة للنبي صَفَنْيا ؛ إذ قال في سِفْره في كتاب العهـــد القديم (صَفَنْيا 2 : 13-15) : **" ويمدُّ (يهوه) يده على الشمال ويُبيـدُ آشـور ويجعـل نينوى خراباً يابسةً كالقَفْر . فتربضُ في وسطها القطعـانُ ؛ كـلُّ طوائـف الحيـوان . القـوقُ أيضاً والقنفذُ يأويان إلى تيجان عُمُدِها. صوتٌ ينعبُ في الكُوى. خرابٌ على الأعتاب لأنه قد تعرّى أَرْزيُّها. هذه هي المدينة المبتهجةُ الساكنةُ مطمئنّةً القائلةُ في قلبها أنا وليس غيري . كيف صارت خراباً مربضاً للحيوان . كلُّ عابرٍ بها يصفر ويهزّ يده "** .

ظلت معارف الأوربيين عن بلاد آشور والآشوريين لقرون من الزمن تقتصر على الأخبار القليلة المذكورة عنها في كتاب العهد القديم؛ وفي كتابات المؤرخين وعلماء السلالات البشرية (الإثنولوجيين) العائدة إلى العصور الكلاسيكية (اليونانيـــة — الرومانية) ، وعلى الإشارات العابرة التي أوردها الرحّالة إلى الشرق .

و لم يتغير الوضع إلا في القرن التاسع عشر الميلادي ، حيث تحرك الاهتمام بها ، وظهرت كتابات تتضمن وصفاً مفصلاً لأطلال المدن ، ومحاولات لمطابقتها مع أسماء المدن المذكورة في مصادر مختلفة .

وصلت الأخبار الأولى عن المكتشفات الضخمة هناك إلى أوربا ، قبيل منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ، وقد كتب القنصل الفرنسي المقيم في الموصل باول إميل بوتّا Paul Emile Botta في نيسان 1845م : **أعتقد أنني أول من اكتشف أنصاباً يبدو أنها تعود إلى ذلك الزمن الذي كانت مدينة نينوى مزدهرة خلاله .**

نفّذ بوتّا أولى الأسبار الأثرية في أطلال نينوى المجاورة للموصل خلال سنتي 1843/1842م، ولكنه لم يحقق النجاح المأمول، فتحول إلى العمل في تل أثري آخر، تميز بضخامته، وهو تل خورس آباد .

في خورس آباد اكتشف أنصاباً ضخمة، تحدث عنها في تقرير له، وأخطأ في تحديد الموقع إذ ذكر أنه اكتشف نينوى. والحقيقة هي أنه اكتشف هناك قصراً للملك الآشوري شَرُّكين (سرجون) الثاني، وقد عرض على المهتمين اكتشافاته المذهلة من خلال رسوم تخطيطية للمنحوتات الحجرية والأنصاب الموجودة فيه أول الأمر، ثم عرضها بأشكالها الأصلية الحقيقية . وفي سنة 1849م نشر بالاشتراك مع الرسام فلاندين Flandin كتاباً مهماً يضم صور القصور الآشورية ، وعنوانه " أنصاب نينوى " *. وبهذا اطلع المهتمون لأول مرة ، في أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، على مادة علمية موثوقة عن تلك المدن التي ما كانوا قد سمعوا عنها من قبل سوى قصص وحكايات .

بتأثير هذه المكتشفات بدأ بعد ذلك بقليل عضو في السفارة البريطانية في القسطنطينية ، يدعى اوستن هنري ليارد ، تنقيباته الأثرية في مدينة آشورية أيضاً . كان ليارد قد تعرف على الشرق الأدنى جيداً من خلال رحلات واسعة النطاق ، وكان يجيد عدة لغات ، ويمتلك معلومات جيدة عن قبائل المنطقة .

---

* Monuments de Ninive découvert et décrit par M.P.E.Botta , mesuré et dessiné par M.E.Flandin . Ouvrage publié par ordre du gouvernement sous les auspices de M.le Ministre de l'Intérieur et sous la direction d'une commission de l'Institut .

في سنة 1845م حصل ليارد ، عبر مندوبين بريطانيين ، على تمويل وتـــرخيص من الباب العالي لإجراء بحوث واستكشافات في مواقع أثرية. وقد اختار لذلك موقع نمرود (كَلْخو القديمة) ، واعتقد أول الأمر أنه يضم بقايا مدينة نينوى القديمة .

كان الموظفون في منطقة الموقع ينظرون إلى أعماله بعين الشك ، ولكن سرعان ما حالفه الحظ ، وعثر بعد أيام قليلة من بدء تنقيباته ، على ألواح حجرية ضخمة نحتت عليها مشاهد فنية ، ونقشت فيها كتابات كثيرة بالكتابة المسمارية . وقـــد اتضح فيما بعد أن تلك المشاهد هي جزء من التزيينات الجدارية التي كانت تزين في الأصل قصر الملك الآشوري آشور ناصربال الثاني (883-859 ق.م) .

وبعد أن تمكن بوتّا من تجزئة بعض الأنصاب الضخمة التي اكتشفها خلال تنقيباته ونقلها إلى باريس، قام ليارد أيضاً بنقل تمثال حجري ضخم لـــ " الثور المقـــدس " إلى لندن. وقد قاد النجاح في عرض هذه النماذج المتميزة المؤثرة من الفن الآشوري، والدالة على رقي في التقنية الحرفية ، في كل من باريس ولندن إلى تفعيل الجهـــود الأثرية وتنشطيها .

كانت أساليب التنقيب الأثري آنذاك محكومة عملياً بغايات غير مقبولة ؛ وذلك مقارنة بالمناهج العلمية الحديثة المتبعة. فقد كان المنقّبون يريدون العثور قدر الإمكان على عدد كبير ومتميز من القطع الأثرية ، ونقلها إلى بلدانهم .

وكان الركام المتجمع والاستيطان الحديث يعيق عملية البحث عن القطع الأثرية، ففي نينوى المجاورة للموصل كانت تتجمع كميات هائلة من الركام فوق القصور الآشورية، مما دفع المنقبين إلى حفر دهاليز تحت الأرض، تخترق كتل الآجر (اللبن)، بهدف الوصول إلى القطع الأثرية المبتغاة. وبسبب تلك الطريقة في التنقيب تـــشكّل ما يشبه الأنفاق . ويذكر أن هرمز رسّام، صديق ليارد في الموصل ، أدخل معـــه ذات مرة خلال ليلة عاصفة ماطرة لوازم النوم وخيمة إلى أحد تلك الأنفاق .

ويعد اكتشاف مكتبة الملك الآشوري آشور بانيبال في نينوى آخـــر عاصـــمة رسمية للمملكة الآشورية من أهم مكتشفات ليارد ورسّام وأبرزهـــا؛ إلى جانـــب المنحوتات الفنية الحجرية . وقد ضمت المكتبة أكثر من خمسة وعشرين ألف رقيم

كتابي مسماري ، أضيفت إلى المكتشف من النقوش الملكية المدونة على الأنـــصاب المكتشفة في القصور غالباً . وتشكل مجموعة رقم المكتبة إرثاً ضـــخماً للمملكـــة الآشورية، لم يدرس حتى الآن إلا بشكل جزئي .

يشكل قسم كبير من الرقم استنساخات لنصوص أقدم، أنجزت وجمعت بناء على طلب الملك الآشوري آشور بانيبال، لتأسيس مكتبته. ويجب ألا يضللنا العدد الهائل من محتوياقما ، ويبعدنا عن حقيقة أن هذه الرقم المسمارية لا تشكل سوى جزء من العدد الحقيقي لها، لأن هناك سجلات مكتبية وإشارات مدونة على رقم خـــشبية توحي بأن عدداً كبيراً منها ضاع، ولن يُكتشف. والى جانب هذه الرقم التي حفظت مرويات من قرون خلت منذ زمن بعيد ؛ توجد نصوص توثّق الأوضاع الإداريـــة الحكومية المعاصرة لها، ومنها مراسلات مع موظفين كبار أو حكام تابعين أو رسل مندوبين ، وكذلك وثائق تتعلق بالإدارة الاقتصادية ، وأخرى ذات طابع قانوني . كما وجدت نصوص دينية شعائرية ، ومنظومات أدبية من أنواع شتى .

إن هذه النصوص المكتشفة في قصور الملوك الآشوريين ، والمدونة على تماثيـــل الحكام الآشوريين ، وكذلك النصوص الأدبية والإدارية والقانونية ، ساعدت كثيراً على استخلاص حقائق وفيرة عن الحضارات المسمارية ، وذلك بشكل يفوق كان متوقعاً .

ب- فكّ الكتابة المسمارية :

بدأت عملية فك رموز الكتابة المسمارية؛ عندما نشر المستشرق الدنمركي كارستن نيبور Carsten Niebuhr في أواخر القرن الثـــامن عشر الميلادي استنساخات نقوش كتابية مسمارية مدونة على صخور في موقع برسيبوليس (في إيران) .

لقد بدا واضحاً في الصور المنشورة أنها تمثّل نصاً صيغ بثلاث لغات مختلفة، وبالكتابة المسمارية . وأُمكن بسرعة تحديد اتجاه الخط ، وتمييز مجموعات من الكلمات .

وكان من بين الذين انصرفوا إلى عملية فك الرموز أستاذ من مدينة جـــوتنجن Göttingen الألمانية ، يدعى جورج أوغُـــست جروتفنـــد Georg August Grotefend ، وقد عُني بفك الكتابة المسمارية التي دُوّن بها النص الفارسي القديم.

وبفضل معرفته الواسعة بتاريخ بلاد فارس اعتماداً على مدونات المؤرخين الكلاسيكيين، وبراعته الفكرية التركيبية تمكنّ في سنة 1802م من استخلاص صيغ أسماء عدد من الملوك الفرس ، وقراءة ما يقارب ثلث الرموز المسمارية الفارسية القديمة . وبسبب الأوضاع السياسية المضطربة تأخر نشر نتائج جهوده كثيراً، وظل إسهامه في عملية فك الرموز مجهولاً على نطاق واسع . ونُسبت عملية فك رموز الكتابة المسمارية خلال الفترة التالية إلى الضابط البريطاني رولنسون H.C.Rawlinson غالباً .

سَهُلَت عملية فك الكتابة المسمارية الفارسية نتيجة أمرين ، هما أن اللغة التي كُتبت بها لغة هندوأوربية، وأن عدد الأشكال الكتابية المستخدمة فيها محدود نسبياً.

أما النصان المسماريان الآخران اللذان تبين فيما بعد أن أحدهما مدون باللغة العيلامية ، والثاني باللغة الأكّدية ، فقد رافقت عملية فكهما صعوبات جمّة .

إن بحث حكام الشرق القديم عن المجد، والميل إلى تدوين النص الواحد بأكثر من لغة لم يُفِد إلا قليلاً ، لأن اللغتين الأخريين المجهولتين آنذاك كُتبتا بأشكال مسمارية معقدة جداً .

ولكن الجهود المبذولة في فك نقش برسيبوليس المدون بثلاث لغات أثمرت عن نتائج أولى مفيدة، وأدت إلى تسارع خطوات فك رموز الكتابة المسمارية البابلية— الآشورية. ومن أهم مظاهر النجاح البارزة تمييز أسماء ملوك ؛ كانت معروفة من قبل ضمن كتاب " العهد القديم "، إذ تم تحديد أسماء الملوك الآشوريين: سَرْجون، أَسَرْحَدّون، سِنْحَريب.

وممن اهتموا بفك الكتابة المسمارية البابلية – الآشورية – إلى جانب رولنسون – نذكر: إدوار هنكس Edward Hincks ، و.هـ . فوكس تلبوت W.H.Fox Talbot ، يولس أوبرت Jules Oppert .

وبتأثير انتشار نوع من عدم الثقة بين الباحثين؛ أعلنت "الجمعية الآسيوية الملكية" في سنة 1857م عن مسابقة يقدم فيها الباحثون دلائل على ما توصلوا إليه في عملية فك الكتابة. وكان النص المعروض في المسابقة لفكه وترجمته هو نص نقش للملك الآشوري تجلت فليسر الأول، غير معروف من قبل .

ثم تمت المقارنة بين الترجمات المختلفة المقدمة، وتبين أنها متفقة إلى حد كبير ، وبذلك عُدّت عملية الفك محققة صحيحة . وشكّل ذلك حجر الأساس المهم للانتقال إلى دراسة النصوص اللغوية الأخرى المدونة بالمسمارية، وأبرزها المكتوبة باللغات : السومرية ، الحثية ، العيلامية ، الحورية .

ج- اتساع نطاق البحوث :

بدأت دول أخرى تنظّم بعثات أثرية، وتشارك في اكتشاف الحضارات القديمة في بلاد الرافدين . وكان من أبرز العوامل التي دفعتها إلى النشاط الأثري هناك :

- نزعة الفضول، والشعور بالدهشة إزاء تلك الحضارات الغريبة، والأقدم من سائر الحضارات المعروفة آنذاك .
- الرغبة في الحصول على معلومات تصدّق الأخبار المذكورة في كتاب " العهد القديم " .
- التشوق إلى اكتشاف كنوز فنية .
- المصالح الاقتصادية والسياسية في تلك البلاد .

ولذلك فقد تم البحث في عدد كبير من المواقع الأثرية القديمة في بلاد آشور القديمة ؛ وكذلك في جنوبي بلاد الرافدين ، وأثمر عن اكتشاف منحوتات ضخمة كثيرة وقطع أثرية أخرى، وعن نصوص مسمارية أخرى ذات أشكال وأحجام شتى.

لقد ظهر اهتمام علمي وشعبي جلي بالحصول على معلومات إضافية عن مرويات كتاب " العهد القديم " . وبرزت أصوات ترى أن المسألة لا تقتصر على الحاجة العلمية التاريخية ؛ بل تتجاوزها لتشكّل تحدياً لـ " الكتاب المقدس " .

خطا الاهتمام العالمي بدراسة الحضارات واللغات الشرقية القديمة خطوة جديدة؛ عندما تم نشر نص مسماري تضمن مقاربة شديدة — من حيث المضمون — للرواية التوراتية عن الطوفان . وفي هذه المرحلة صارت المرويات المسمارية تدلل على مصداقيتها، وباتت تعدّ مصادر تاريخية حقيقية لا يرقى الشك إليها. وتطلّبت عملية دراستها وتحليلها وضع مبادئ علمية خاصة لها، من حيث المنهج والمضمون المعرفي.

وقاد ذلك إلى ظهور اختصاص علمي خاص في الجامعات، يعنى بدراسات الشرق القديم. وفي سنة 1875م عيّن إبرهارد شرادرEberhard Schrader – الذي كان أستاذاً لعلم اللاهوت في جامعة يينا Jena الألمانية – كأول أستاذ للدراسات الآشورية في جامعة فريدريش فيلهلمس في برلين ، وقد أطلقت تسمية " الدراسات الآشورية Assyriologie " على العلم الذي يُعنى بدراسة تاريخ الشرق القديم ولغاته وحضاراته .

كان الناس في المملكة الألمانية – حتى ذلك الوقت – يراقبون عن بعد اهتمام الدول الأخرى بحضارات الشرق الأدنى، ولكن بعد إنشاء اختصاص الدراسات الآشورية في برلين ، ظهرت مسارات اهتمام عديدة بها ، ففي سنة 1898م تأسست "جمعية الاستشراق الألمانية" التي اهتمت بدراسات الشرق القديم، وقدمت الدعم المالي – القائم على جمع تبرعات شخصية ، ومساهمة القيصر فيلهلم الثاني – لتنفيذ تنقيبات أثرية في موقع قلعة الشرقاط (آشور القديمة) الواقع على الضفة الغربية من نهر دجلة .

كان الاسم القديم للموقع معروفاً من خلال نقوش كتابية اكتشفت فيه خلال القرن التاسع عشر م. وكان الفضل في ذلك يعود إلى الإنكليزي ريج C.J.Rich الذي اكتشف مدينة آشور سنة 1821م . ونظراً لأن أعمال السبر الأولى في الموقع لم تحقق نتائج مرضية ، فقد توقف الإنكليز عن متابعة التنقيب فيه .

في خريف 1903م انطلق المهندس المعماري الألماني فالتر أندريه Walter Andrae من دمشق إلى مركز عمله الجديد في آشور، عبر طريق محفوف بالصعاب.

يتحدث عن ذلك في مذكراته (ص 144-146)، فيقول: **سارت الرحلة من دمشق عبر الطريق الوحيد الممكن آنذاك، وذلك باستخدام خيول وقافلة بغال وخيام مستأجرة، وعبر الطريق المباشر إلى الموصل، الذي يمرّ بأطلال مدينة تدمر الكبيرة والضخمة .**

إنها رحلة حقيقية في البادية. تطول حتى نهر الفرات. يعاني المسافر خلالها صعوبات غير محتملة لتأمين المياه ، ويقضي ساعات طويلة في النهار حتى يصل من بئر إلى بئر .

ومياه تلك الآبار كبريتية أو مالحة أو آسنة ، ويصل عمقها أحياناً إلى 70 م . ونظراً للمسافة الطويلة يتوجب على المرء أن يتزود بالماء ، وإلا فإنه قد يبقى يومين بلا ماء ....

وبخلاف طريق البادية هذا ، وآباره العميقة القديمة ؛ فإن الطريق الذي يسير من الفرات إلى دجلة، بشكل مستقيم عبر " الجزيرة " ، وهو وفير المياه ، ومما يمكن أن يحصل هو تلوث مواضع المياه بالجراد الميت . وتعد هذه المنطقة حالياً أبرز مناطق زراعة الحبوب .

ومما يدل على أن الوضع كان مماثلاً في العصور القديمة ، وجود تلال صغيرة كثيرة ، هي بقايا مدن قديمة .....

انتهت القافلة في الموصل ، وافترقنا . وتم نقلنا إلى كوخ صغير بسيط مبني من نبات القصب على قارب نهري يدعى كِلِك ، وهو يمثّل أقدم وسيلة نقل على مياه نهر دجلة ، يمكن للمرء أن يسير به مع اتجاه حركة جريان مياه النهر ، وليس عكسه .

دامت الرحلة الهادئة المريحة يومين، ثم وطأتُ لأول مرة أرض مدينة آشور !

كان اختيار مكان التنقيب هذا مسألة حظ. وكان أول مدير لبعثة التنقيب هو روبرت كولدوي Robert Koldewey ، ولكنه غادر آشور بعد إقامة قصيرة فيها ، وتولّى أندريه إدارة العمل .

لم تكن مدينة آشور بحجم المدن الآشورية الضخمة الأخرى، ولكنها كانت النواة الأساسية وقلب بلاد آشور، إذ ظلت خلال قرون عدة المركز الديني والفكري للحضارة الآشورية .

لم يختفِ الآشوريون من الذاكرة تماماً، على خلاف شعوب وحضارات أخرى في الشرق الأدنى القديم. فثمة مصادر متنوعة، وفي الغالب متأخرة نسبياً، أسهمت في التذكير بهم بأشكال مختلفة. وبذلك تكونت صورة عن بلاد آشور، تعكس مفاهيم وأفكاراً سياسية مسبقة، ويتوجب اليوم إعادة النظر فيها وتفحصها من جديد في ضوء المعلومات والمواد التي كشفت عنها التنقيبات الأثرية .

3 بين الاستقلال والسيادة الأجنبية

(تاريخ آشور حتى أواسط الألف الثاني ق.م)

آ- في العصور المبكّرة :

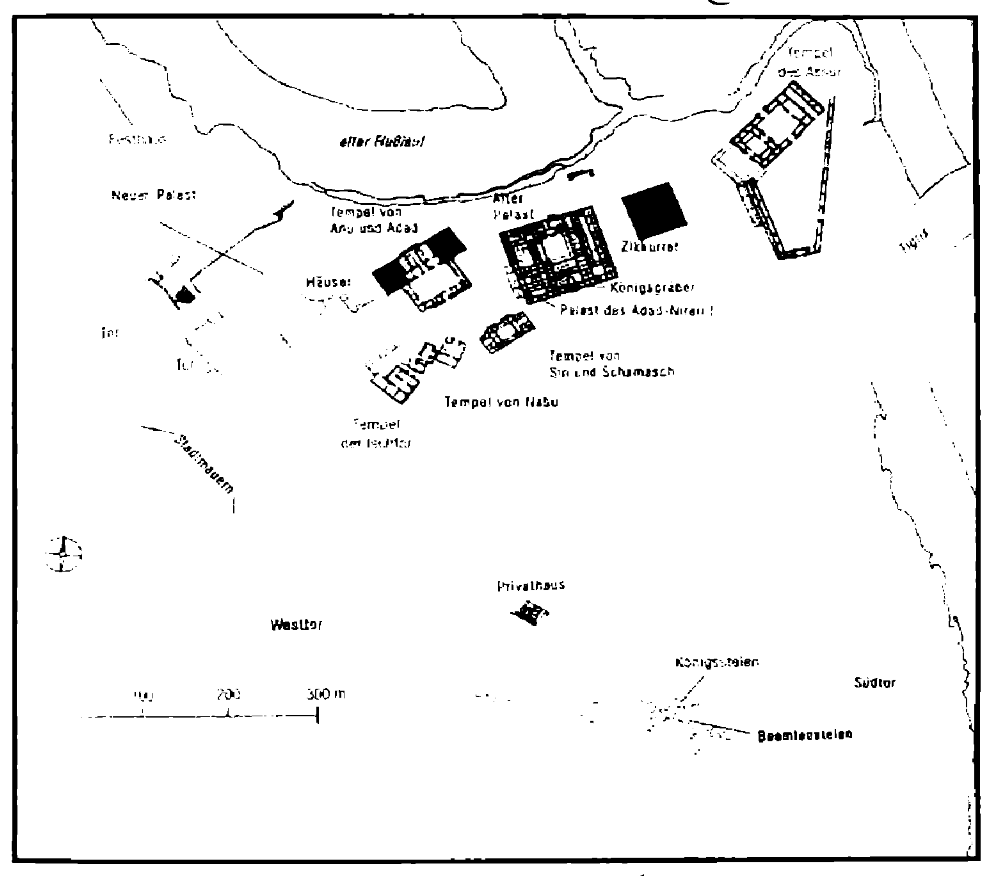
كانت مدينة آشور، الواقعة على بعد نحو 100 كم جنوبي الموصل وعلى الضفة الغربية من نهر دجلة، المركز السياسي الأول للمملكة الآشورية التي نشأت في زمنٍ تالٍ . وكان الجبل الذي قامت المدينة على سفحه الشمالي يدعى في العصور القديمة إبِخ (حالياً: جبل خانوقه الذي يمتد نحو الجنوب الشرقي ، حتى ينتهي ويتصل بجبل همرين). كانت المدينة محمية من الجانب الشرقي لها بنهر دجلة، وتعلو نحو الشمال فوق السهل المجاور بنحو /15/م .

لا نعلم إلا القليل عن طبيعة الاستيطان هناك؛ حيث نشأت مدينة آشور، خلال عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية المبكرة . وتظهر القطع الفخارية العائدة إلى الألفين السادس والخامس ق.م ، المكتشفة في منطقة شرقي دجلة أن هذا الإطار الجغرافي كان مأهولاً بالسكان منذ عصور ما قبل التاريخ. ومن المحتمل أن الموقع الاقتصادي المتميز لآشور كان يتمتع منذ زمن مبكر بأهمية معينة لدى السكان القاطنين في محيطها. ويمكن للمرء افتراض أنه كان يشكل نقطة التقاء ، وربما كان يخدم أغراضاً دينية أيضاً . ومن الممكن أن الإله آشور ، الذي صار فيما بعد إلهاً مهماً لدى الآشوريين ، كان في الأصل إلهاً جبلياً محلياً يمثّل تشخيصاً لجبل إبِخ .

لقد بات من الصعب الكشف عن طبقات الاستيطان الأولى والأقدم في مدينة آشور، بسبب أعمال العمران فوقها خلال العصور التالية الأحدث، كما إنها تخرّبت جزئياً . فقد وجد المنقبون العاملون مع فالتر أندريه في مواضع عدة من منطقة المدينة شواهد عمرانية نسبوها – بشكل عام جداً – إلى السوية الأقدم في المدينة .

ومنذ أواسط الألف الثالث ق.م – على الأقل – بات الموقع مأهولاً بشكل مستمر. وتدل على ذلك بقايا بيوت سكنية من العصر الأكّدي القديم (بين القرنين 24-22 ق.م) ، وكذلك – وبشكل رئيس – أساسات مبنى ديني ضخم . وقد

عثر في هذا المبنى على قطع أثرية (دمى طينية صغيرة ، أوانٍ نذرية ، قطع تزيينية مصنوعة من مواد نفيسة) ، تدعو إلى التخمين بأنه — مثل المباني الأحدث القائمة في محيطه — كان معبداً مخصصاً لعبادة الإلهة عشتار التي تمتعت بأهمية متميزة في جميع الحضارات الشرقية القديمة . ومن المتوقع الكشف في مواضع أخرى من المدينة عن طبقات استيطان قديمة معاصرة له ؛ كما تُظهر القطع الفخارية المكتشفة خلال التنقيبات الحديثة في الموقع .



الشكل (1) مخطط مدينة آشور

يؤرّخ الباحثون أقدم الكتابات المكتشفة في مدينة آشور بالقرن الثالث والعشرين ق.م . ومن بينها نقشان نذريان مدونان على رأسي صولجانين ، وهما للملكين الأكّديين ريموش (نحو 2278–2270 ق.م) ومَنيشتوشو (نحو 2269–2255 ق.م) . كما ظهرت في الموقع بعض النصوص الإدارية العائدة إلى هذه الحقبة ،

ولا يتضح فيها الوضع الذي كانت عليه مدينة آشور إدارياً (مركـز منطقـة — مركز إقليم — مركز ديني) في بداية العصر الأكدي . ولذلك يمكن الحكم بأنها كانت جزءاً من مناطق المملكة الأكّدية .

وفي النقوش النذرية نقرأ أن شخصاً يدعى إتيتي نذر قطعاً مسلوبة في حـرب للإلهة عشتار في آشور، وأن آخر يدعى أزوزو يلقّب نفسه بـ " خادم مَنّيشتوشو" الملك الأكّدي . كما كشف عن شواهد تدلل على الوجود الأكدي في مـوقعين بعيدين جداً في جهة الشمال ، هما موقعا تل براك وتل موزان. وإلى هذه الحقبـة يعود أقدم ذكر لاسم المستوطنة "آشور".

انتهت المملكة الأكّدية التي امتدت على نطاق جغرافي واسع، بعد نحو قرن ونصف، في نحو 2200 ق.م، وتُرجع المصادر المسمارية السبب في ذلك - بشكل أساسي - إلى تغلغل العيلاميين من الجبال الإيرانية، والهجمات الكوتية إلى مناطقها المركزية. كما توجب على ملوك أكد أن يحموا بلادهم من خطر قبائل الأموريين، وقد كانت هذه القبائل الناطقة بلغة ساميّة معروفةً من قبلُ ، منذ أواسط الألف الثالـث ق.م بالتسمية السومرية مَرْ — توٍ MAR.TU . وقد ظهرت أول الأمر وبشكل متميـز في المناطق الواقعة غربي انعطاف الفرات نحو الشرق، ثم تغلغلت في النصف الثاني من الألف الثالث ق.م نحو الشرق ؛ بل بشكل خاص نحو الجنوب الشرقي. وقد نشأت كيانات سياسية صغيرة كثيرة بعد انهيار مملكة أكّد . وليست هناك بعدُ دلائل تشير إلى علاقات بين آشور ومستوطنات العصر البرونزي المبكر في الجهات الغربية .

تمكن حاكم مدينة أور في جنوبي بلاد الرافدين أن يفرض سيادته على عدد من المدن والإمارات المستقلة، وذلك في أواخر القرن الثاني والعشرين ومطلع الحـادي والعشرين ق.م . واحتلت أور مركز الصدارة والقوة في الجنوب ، وحكـم فيهـا حكام يعرفون سلالة أور الثالثة ، وتسمى حقبتهم بعصر أور الثالثة (نحو 2112-2004 ق.م) أيضاً . وذلك تمييزاً لهم عن سلالتين أخريتين أقدم ذكرت المـصادر السومرية أنهما حكمتا في أور.

وبذلك نشأت مملكة أور التي ضمت عدة وحدات إدارية . وقد خضعت لها المناطق المحيطة بآشور أيضاً، في مطلع القرن الحادي والعشرين ق.م . فُرضت الجزية على مدينة آشور ، وعيّن على حكم مناطقها حكام تابعون لملك أور ، وتفيدنا المصادر باسم زَرّيقُم Zarriqum الذي كان يدير شؤون آشور أحياناً ، خلال حكم أَمَر سين في أور .

و لم تتضح لنا درجة ارتباط آشور بمملكة أور بعدُ ، ولا متى تمكنت آشور من التحرر عن حكمها، وما هي الظروف التي ساعدتها على ذلك. ويعود ذلك إلى أن النصوص الكتابية والشواهد الأثرية المادية لا تفيد بما يمكن أن يوضح ذلك .

ويمكن القول - على أقل تقدير - إن آشور استعادت استقلالها التام، مع الانهيار التام لمملكة أور ، بسبب الصراعات العسكرية الكثيفة والاضطرابات السياسية الداخلية فيها في أواخر الألف الثالث ق.م. ومازلنا نفتقر إلى مصادر مفيدة من مدينة آشور نفسها ، يمكن أن تصور وضع المدينة في تلك المرحلة بدقة .

ب- آشور مركز تجاري مهم في بداية الألف الثاني ق.م :

إنه لمن المفرح ألا تُعدّ مرحلة بداية الألف الثاني ق.م من المراحل المظلمة في التاريخ الآشوري، ومن اللافت للانتباه ألا تكون بلاد الرافدين مصدر المعلومات المتوافرة عنها ، بل بلاد الأناضول .

لقد اكتشف في وسط بلاد الأناضول في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ، عن موقع أثري يدعى كول تبه Kültepe قرب مدينة كيسري (التركية) ، ووجدت فيه منذ ذلك الوقت أكثر من واحد وعشرين ألف رقيم مسماري .

يقع الموقع في المنطقة التي كانت تدعى في المصادر الكلاسيكية كبادوكيا، ولذلك فإن تلك المكتشفات الكتابية صارت تدعى " الرُقُم الكبادوكية " .

تبين بمرور الزمن أن النصوص المدونة على تلك الرقم ليست مصوغة بلغة أناضولية ، بل ساميّة ، وتمثل لغتها الصيغة الأقدم من اللغة الأكّدية التي كان يتكلم بها الآشوريون، ولذلك وصفت هذه المرحلة اللغوية - بناءً على خصائصها اللغوية - بالآشورية القديمة. وهي تتمايز عن المراحل التالية الأحدث التي مرت بها الآشورية،

كالآشورية الوسيطة (النصف الثاني من الألف الثاني ق.م) والآشـورية الحديثـة (النصف الأول من الألف الأول ق.م) .

ويتم بشكل اصطلاحي وغير دقيق الربط بين هذه المراحل اللغوية وثلاث مراحل أساسية في تاريخ بلاد آشور السياسي والحضاري . ولذلك يمكننا — على سـبيل المثال — أن نتحدث عن المنحوتات الفنية في العصر الآشوري الحديث ، أو ملـوك العصر الآشوري الوسيط ... إلخ .

كان موقع كول تبه يدعى كانيش قديماً . وقد تبين أنه نشأت فيـه مـستوطنة خلال الألف الثالث ق.م ، وعلى طرفها أقام التجار الآشوريون — فيما بعـد — مستوطنة تجارية خاصة ، كشف فيها عن الرّقم الآشورية القديمة .

ونعلم من النصوص المدوّنة عليها أن هذه المستوطنة التجارية الآشـورية — في الأكّدية كاروم kārum " رصيف (تجاري)" — كانت أحد مراكز شبكة واسعة من المراكز التجارية الصغيرة والكبيرة التابعة لمدينة آشور ، والمنتشرة في أرجاء بلاد الأناضول وشمال سورية ، منذ القرن العشرين ق.م . ونعلم من النـصوص أسمـاء عدد كبير من تلك المراكز ، ولكن الباحثين لم يتمكنوا من تحديد مواقع معظمهـا بدقة بعد. مازلنا غير متأكدين حالياً من حجم العلاقات بين آشور وبلاد الأناضول خلال الألف الثالث ق.م. و لم يعثر حتى الآن إلا عن القليل من النصوص الآشورية القديمة في مدينة آشور نفسها ، كما لم تنقب السويات الأثرية المعاصرة لها ضـمن الأحياء السكنية بشكل منظم بعد. ومن قبيل المصادفة في اكتشاف الكتابات، صرنا نعرف معلومات وفيرة عن نشاطات آشور التجارية في بلاد الأناضول المركزية .

ومن المؤكد أن مناطق شمالي سورية كانت مسرحاً لتلـك التجـارة وموطنـاً لمراكزها ، كما كانت مناطق عبور للتجارة الأناضولية . وثمة إشارات إلى وجـود مراكز تجارية محلية في منطقة الخابور العليا والبليخ ، وذلك ضمن نصوص مكتشفة في مدينة شَخْنا (حالياً تل ليلان) ، ويتضح فيها أنه كانت هناك مـدن أخـرى — على غرار آشور — ترتبط بشبكة مشابهة من العلاقات التجارية .

نُظّمت عمليات العبور التجارية (ترانزيت)، والأعمال التجارية للتجار القادمين من آشور، باتفاقات مع الأمراء المحليين في بلاد الأناضول وشمالي سورية. يستخلص

ذلك من إشارات غير مباشرة وردت ضمن مراسلات التجار ، ويرد تأكيد لها في معاهدة عثر عليها ضمن أرشيف القصر الملكي في مدينة شَخْنا . ولابدّ أنه وجدت معاهدات مشابهة مع مدن أخرى أيضاً ، وربما لم تكن تدوّن كتابياً دائماً .

كان الهدف من تلك المعاهدات تحقيق التفاهم بين المركز التجاري آشور ومراكز الحكم المختلفة. لا نعرف بشكل كاف الإجراءات الشكلية التي كانت تمهد لمثل تلك المعاهدات، والراجح أنها كانت تختلف من منطقة إلى أخرى، ومن فترة إلى أخرى.

يظهر تِل أبنو Till-abnu حاكم مملكة آبوم (التي كانت شخنا عاصمة لها) ومدينة آشور في نسخة المعاهدة الوحيدة المكتشفة في شخنا كفريقين وقّعا المعاهدة. وقد كانت أراضي مملكة آبوم معبراً إلزامياً على الطريق التجاري بين آشور وبلاد الأناضول المركزية ، عبر مناطق الخابور .

ولم تكن حركة العبور وحدها تتطلب موافقة الحكام المحليين ومشاركتهم، بل كذلك القيام بتأسيس مراكز تجارية هناك . وكان من واجبات الحاكم المحلي تأمين الحماية للقوافل التجارية خلال عبورها، وكذلك- ولو ضمن نطاق محدود –النهوض بالواجب في مواجهة حالات النهب التي يمكن أن تحصل ضمن مناطق سيادته . وفي المقابل كانت البضائع التجارية المنقولة من آشور تخضع للضريبة، ثم يتم التنازل لصالح الحكام المحليين عن حقوق ممارسة التجارة والاحتكار. وعلى الرغم من الشروط القاسية نسبياً فإن التجارة كانت مربحة ، وظلت جارية خلال حياة عدة أجيال .

كان القصدير والمنسوجات من أهم البضائع التي يتم نقلها من آشور، ثم مبادلتها في بلاد الأناضول مع معادن نفيسة . حيث كان التجار المقيمون في آشور يشترون القصدير الذي يصل إلى بلادهم — عبر طريق تجارية مألوفة — من المناطق الجبلية الإيرانية ، وكذلك مواد للنسج أو منسوجات جاهزة ، يصل قسم منها من جنوبي بلاد الرافدين. وكانت عملية نقل تلك البضائع إلى بلاد الأناضول تتم بوساطة قوافل من الحمير. وتستغرق الرحلة التجارية ضمن ظروف طبيعية جيدة نحو ستة أسابيع عادة ، أما خلال الشتاء فكانت الحركة تتوقف بسبب الظروف الطبيعية القاسية في المناطق الجبلية .

أرباح التجار كانت عالية؛ فقد كان القصدير اللازم في بلاد الأناضول لتصنيع الأدوات البرونزية يباع هناك بضعف سعر شرائه ، أما المنسوجات فكانت تحقق أرباحاً تصل إلى ثلاثة أضعاف سعر الشراء . وكان التجار الآشوريون يبادلونها بالذهب والفضة ومواد تتميز بها بلاد الأناضول .

كانت التجارة التبادلية تتم وفق قوانين صارمة، وتقوم مؤسسات معينة بالإشراف على حل النزاعات بشكل حازم يضمن استمرار العلاقات الوثيقة بين آشور والإمارات الأناضولية. وكان الوجود المكثف للمحطات التجارية الصغيرة والكبيرة على الطرق التجارية المهمة، وكذلك انضمام التجار إلى جمعيات تجارية ، يقلل من أخطار التجاوزات والنزاعات .

لقد بدأ تجار آشور باستخدام المركز التجاري (كاروم) في مدينة كانيش (كول تبه حالياً) منذ نحو أواسط القرن العشرين ق.م . وكانت معظم البيوت السكنية في (كاروم) مؤلفة من طابق أو طابقين، وضمت مشاغل وقاعات للتجارة ومخازن وباحات. أما نمطها العماري وتجهيزاتها الداخلية فقد كانت تتوافق والتقاليد المحلية .

احتفظ التجار بالأدوات القيّمة والبضائع والوثائق التجارية في غرف محمية خاصة، وكانت أبواب بعضها مختومة أحياناً . وقد تم العثور في بيوت كثيرة على أرشيفات من الوثائق العامة والتجارية التي تخص التجار، وكان قسم منها يقتصر على عدد قليل من الرقم الطينية، وأخرى تضم مئات عدة. وقد تنوعت من حيث موضوعاتها، وشملت مراسلات مع تجار آشوريين ومحليين ، وسجلات جرد وحسابات، وعقود ومعاهدات . وتقدم نصوصها معلومات كثيرة مفصلة عن العمليات التجارية .

لم يكن التجار الآشوريون خاضعين للقوانين المحلية، بل للقوانين الآشورية. وكان للمركز التجاري مؤسسات إدارية مستقلة ذات هيكلية ترتيبية محددة ، تتفق عملياً مع ما يماثلها في مدينة آشور . وكانت هيئة إدارة شؤون المركز التجاري (كاروم) تتباحث مع الحكام المحليين ، وتمثّل مصالح المركز وسكانه . وهي مسؤولة عن جمع الضرائب والرسوم ، ولها صلات مع مدينة آشور. وكانت البيوت الأساسية للأسر موجودة هناك ؛ وغالباً ما كان هذا المبدأ متبعاً في آشور أيضاً . أما التجار الجدد فقد كانوا غالباً ما يتنقلون من مكان إلى آخر لممارسة تجارتهم .

وبشكل مطّرد دائم وجد شركاء قاموا بأعمال تجارية مشتركة . وكان تحديد الشروط والحصص والأرباح والخسائر يتم دائماً بشكل دقيق. وجرت اتصالات على نطاق واسع بين الأماكن المتباعدة ، وذلك عبر مراسلات ، كالتي وجدت ضمن الوثائق الكتابية المكتشفة في المركز التجاري (كاروم) في مدينة كانيش .

كانت عمليات التجارة معقدة أحياناً ، ولم تغب عنها أساليب الغش وتغليب المصالح ، فقد جاء في إحدى الرسائل :

" إلى لِبْتانمُ ... هكذا يقول آشور شَد إيلي: لقد تمّ إعادة قسم من الدين البالغ 2 (مانا) من الفضة، والفائدة المتوجبة (واحد وربع شقل عن كل مانا) . فبقي 1 (مانا)

9 (شقل) استلمها إيلي باني ، بناء على غلاف الرقيم العائد لك والموجود عنده ، (حيث يذكر فيه) أني مدين لك .

وقد تسلّم إيلي باني الآن هنا رقيماً دوّن عليه ذلك ، وطبع بختمي . وفي حال ظهور رقيم آخر مزوّر بخصوص الكمية (2 مانا من الفضة) والمطالبة بفائدتها ، يجب ... " .

استفادت آشور من التجارة مع بلاد الأناضول ، وكان موقعها الاستراتيجي المناسب كملتقى تجاري هو المصدر الأساسي لثروتها . ومما يدل على ذلك مرسوم أصدره إيلوشوما أحد حكام آشور في العصر الآشوري القديم ، يتضح من نصه أنه أعفى حكام دويلات مدن مهمة في جنوب بلاد الرافدين؛ منها مدن دير، نيبور، أور ، من الديون والضرائب . وبما أننا لا نعلم شيئاً عن الحملات التوسعية لهذا الحاكم، فيمكننا افتراض أنه كان يريد بذلك دعم النشاط التجاري هناك. وثمة أمر رسمي مشابه أصدره خليفته إريشم الأول يعفي فيه سكان مدينة آشور من الضرائب المفروضة على بضائع مختلفة (فضة ، ذهب، رصاص، قصدير) . وبذلك كانت المكاتب التجارية الموجودة في مدينة آشور معفاة من الضرائب الداخلية المفروضة على التبادلات التجارية. ولكننا لا نعلم المدى الزمني لسريان مثل هذه الامتيازات .

يبدو أن السيادة السياسية المباشرة لمدينة آشور في المناطق المجاورة لها تقلصت خلال هذه الحقبة ، وبذلك كانت آشور مركزاً تجارياً ذا مناطق داخلية محدودة . لا نعرف أخباراً موثوقة عن ذلك بعد ، فالتنقيبات في آشور كشفت عن لقى أثرية

قليلة ، والدراسات المنهجية للمنطقة المحيطة بها لم تتم ؛ حسب خطة التنقيبات السابقة في الموقع .

تتحدث نقوش قصيرة عن أعمال عمرانية صغيرة وضخمة ، وعن بناء منشآت عمرانية جديدة — كالمعابد مثلاً — وإعادة بناء أجزاء آيلة للسقوط ؛ كما في سور مدينة آشور . كانت هذه الأعمال تموّل بأمر الحاكم من واردات المدينة ، وأحياناً كان يتم توجيه نداء إلى المستوطنات التجارية في بلاد الأناضول للمساهمة في ذلك.

وتدل النذور المقدمة إلى آلهة متعددة على تنوع الحياة الدينية في المدينة، ولكن الشعائر المتصلة بالإله آشور إله المدينة كانت تلقى آنذاك اهتماماً خاصاً .

نستمد المعلومات المتعلقة بالبنية السياسية في المدينة من إشارات واردة في المراسلات الآشورية القديمة . ويتضح فيها أن حاكماً يحمل لقب " أمير" أو "سيّد " كان يترأس المدينة ، ويعدّ نفسه شخصياً بمنزلة " حاكم ، مدير " تحت رعاية إله المدينة آشور الذي هو السيد الأعلى الحقيقي . وقد كان هذا المفهوم معروفاً وموروثاً عن نظام الحكم في دول المدن السومرية في جنوبي البلاد. ويبدو أن اختيار الحاكم كان يتم وفق مبدأ " اختيار الأفضل " من بين الأسر المختلفة ذات الشأن في المدينة ، ولا نعرف شيئاً عن الإجراءات التي كانت تتبع في تحديده وتعيينه .

في نحو 1830 ق.م (1770 ق.م ، حسب منهج التأريخ القصير) دُمرت مستوطنة كانيش في بلاد الأناضول ؛ بسبب كارثة ألمت بها، ويرجح أنها كانت نتيجة صراعات بين الإمارات الأناضولية المحلية. واضطر السكان إلى الهرب منها ، ويبدو أنهم لم يستطيعوا أن يأخذوا منها سوى اللوازم الضرورية وأشيائهم الثمينة ، وتركوا ممتلكاتهم ووثائقهم التجارية .

ويبدو أن الآشوريين استطاعوا بعد زمن العودة إلى ممارسة نشاطهم التجاري ، ولكن بشكل محدود . وتختلف البحوث في تقدير الفترة الزمنية الفاصلة بين الهروب والعودة، فقد قدرت بسنة واحدة، أو بضع سنوات ، ويرجح حالياً أنها دامت جيلاً كاملاً (نحو ثلاثين سنة) .

وثمة مظاهر كثيرة تشير إلى العودة بشكل سريع إلى ممارسة التجارة ، فقد ظلت هناك مبان لم تتعرض للدمار كثيراً ، وأمكن العودة إلى استخدامها، وقد كانت عملية إحياء التجارة تخدم مصالح جميع المشاركين فيها .

إن أوضاع المرحلة الثانية من تاريخ المركز التجاري (كانيش) — بالمقارنة مع المرحلة القديمة — موثقة بشكل أقل ، ويبدو أنها لم تدم أكثر من سبعين سنة .

ج- آشور تحت حكم شمشي أدد الأول :

لم يتضح بعد؛ فيما إذا كانت بداية المرحلة الجديدة مرتبطةً بالتغيرات التي حدثت في أعالي بلاد الرافدين ؛ ولاسيما في مدينة آشور نفسها . ولكن المؤكد هو الدور الأساسي لشمشي أدد الأول في تبدل المشهد السياسي في شمالي بلاد الرافدين.

كان شمشي أدد ينتمي إلى أسرة أمورية حاكمة في مدينة إكلاتُم غير البعيدة عن آشور ، ولكن لم يستطع الباحثون تحديدها بشكل مؤكد بعد. يبدو أنه احتل عرش إكلاتم في نحو 1830 ق.م (1770)، ثم أقام فترة في بلاد بابل. وبعد عودته إلى إكلاتم بسنوات قليلة، فسار بحملة ضد آشور في نحو 1808 ق.م (1748) واحتل المدينة ، وأبعد عن العرش حاكمها إريشُم الثاني ، وتولى حكمها .

وتمكن في السنوات التالية من أن يخضع لسيادته جميع مناطق شمالي بلاد الرافدين؛ حتى الفرات ، وسيطر على الحكم في مدينة ماري . ومن خلال تحالفاته مع القوى السياسية هناك ، اتسع نطاق مملكته . كما سلك منهجاً غير مألوف لضبط مناطق سيادته الواسعة ، فقد عيّن ابنيه كحاكمين نائبين عنه ؛ حيث حكم ابنه إشمي دَجَن في إكلاتم والقسم الشرقي من المملكة، وحكم ابنه يسمخ أدد في ماري، وكان يراقب منها منطقة وادي الفرات . أما هو فقد اختار مدينة شَخْنا (تل ليلان) الواقعة في وسط المملكة مقراً له ، وغيّر اسمها إلى شُبَت إنليل " مقر الإله إنليل" ، وكان الإله إنليل في الأصل إله مدينة نيبور في بلاد بابل ، ويُعدّ — مع الإلهين آنُ وإيا — من الآلهة العليا في المجمع الديني في جنوبي بلاد الرافدين ، وإلهاً حامياً للملكية . وبذلك جعل السلطة السياسية في قبضة أسرته، كما صار الحضور الملكي في المملكة ثلاثياً. وحمل شمشي أدد لقب " الملك الكبير " بينما تلقّب ابناه بلقب " الملك " .

وعلى الرغم من أن مدينة آشور لعبت دوراً ثانوياً في البنية الجغرافية السياسية لمملكة شمشي أدد الأول ؛ بسبب موقعها الجغرافي ، فإن قوتها وسيطرتها منحت المدينة بعض الاهتمام . ومن أهم إنجازاته في مدينة آشور إعادة بناء معبد إله المدينة آشور ، بشكل ظلت مظاهره المعمارية تؤثر في أعمال العمران اللاحقة في المدينة . وقد أظهر حضوره بشكل مختلف عن حكام العصر الآشوري القديم ، وقلّد حكام مملكة أكّد بأن صار يلقب نفسه بلقب "ملك الكون". وبفضل نشاطه العمراني في آشور والمدن الأخرى اكتسب شعبية ، وفرض نفسه . وقد امتلك رؤية سياسية بعيدة المدى ، إذ أظهر احترامه للآلهة المحلية ، واهتمامه بعبادتها ، وبذلك تفادى إمكانية ظهور معارضة ذات طابع ديني له .

وعلى الرغم من البناء السياسي المحكم لمملكته الواسعة فإنها لم تستمر زمناً طويلاً، فقد انهارت بموته 1755 ق.م (1715) ، واستعادت الدول والإمارات الخاضعة لها استقلالها ، وعادت السلالات الحاكمة المبعدة إلى السلطة . وقادت التجزئة السياسية في أعالي بلاد الرافدين إلى ظهور تحالفات جديدة ، حيث انضم "الملوك " الصغار إلى الحكام ذوي التأثير السياسي القوي . ويظهر هذا في رسالة من أحد أتباع ملك ماري إلى سيده ؛ إذ يقول :

ليس ثمة ملك واحد قوي بنفسه. فحمورابي ملك بابل يتبعه عشرة إلى خمسة عشر ملكاً، ومثل هذا العدد يتبع كلاً من ريم سين ملك لارسا، وإبال بي إيل ملك إشنونا ، وأموت بي إيل ملك قطنا . أما يريم ليم ملك يَمْخَد فيتبعه عشرون ملكاً .

لقد دخل ابنه إشمي دجن في تحالفات أيضاً، بغية ضمان استمرار حكمه وحكم ذريته فيما بعد ؛ على الأقل في مدينة إكلاتم. وإذا ما صدّق المرء المعلومات المذكورة في المرويات الآشورية فإنه على ما يبدو تمكن من الحفاظ على عرش آشور أيضاً .

لا نعلم كيف حصل ذلك ؛ نظراً لوجود صعوبات سياسية خارجية وداخلية هائلة ، كما نجهل سبب عدم استغلال مدينة آشور حالة وفاة شمشي أدد الأول لتحقيق استقلالها الذاتي . فيما بعد حصلت ثورة ضد حفداء شمشي أدد الأول غير الآشوري، قادتها أسرٌ عريقة قديمة في آشور .

د- مملكة كبرى جديدة (ميتّاني) :

بدأت الإمارات الحورية المتعددة القائمة في أعالي بلاد الرافدين منذ أواخر الألف الثالث ق.م بتوحيد أنفسها من جديد تحت قيادة ملك كبير، وذلك خلال القرن السادس عشر ق.م ، ولكنها ظلت لا تشكل خطراً حقيقياً. فعندما قام الملك الحثي مورشيلي الأول 1595 ق.م (1531) بشكل سريع باحتلال عدد كبير من دويلات المدن والإمارات الصغيرة في سورية، وسار مع مجرى الفرات حتى وصل إلى بابل، لم يقم الحوريون بأعمال دفاعية مضادة متميزة. ولكن في مطلع القرن الخامس عشر ق.م استغل الحوريون ضعف الحثيين لفترة، وسيطروا على شمالي سورية . وبدأت المصادر الكتابية تتحدث عنهم كقوة عظمى حقيقية تدعى " ميتّاني " . وتحولت مناطق شمالي سورية إلى هدف لصراع المصالح السياسية، فمصر تضغط من الجنوب، والحثيون من الشمال ، وميتّاني من الشرق. وبدأت القوى العظمى الثلاث تسعى من خلال تحالفات جديدة مع الممالك الصغيرة والإمارات الموجودة في سورية، إلى فرض سيادتها في تلك المنطقة ، وقد وُفّقت كل منها بين حين وآخر .

لم تتأثر مدينة آشور بذلك الصراع بشكل مباشر، بسبب موقعها الجغرافي ضمن مناطق السيادة الميتّانية ، ولكننا نجهل مكانتها السياسية ضمن مملكة ميتّاني آنذاك .

لا تتضمن "قائمة الملوك الآشورية" إشارات إلى حكام غرباء ، بل تورد — دون انقطاع — سلسلة من أسماء الحكام الآشوريين . ومن غير الواضح بعد ؛ إلى أي مدى يعكس ذلك الواقع السياسي آنذاك ، وإن كانت هناك إشارات تدل بوضوح على ممارسات سياسية مستقلة لملوك آشور . أما اللقى الأثرية التي تعود إلى تلك المرحلة فتقتصر حتى الآن على طبعات الأختام الأسطوانية والأدوات الفخارية .

4

بـلاد آشـور

نشـأة مملكـة آشـوريـة

آ- بروز الدور السياسي لمدينة آشور :

في الوقت الذي كانت مملكة ميتّاني تخوض الصراع مع مصر في شمـال غـرب سورية؛ عقد الملك بوزور آشور الثالث الحاكم في آشور اتفاقاً ثنائياً مع حاكم بلاد كردونياش ؛ كما كانت تسمى مناطق الجنوب الرافدي آنذاك. ويعدّ ذلك الاتفاقُ الأوّلَ بين عدد كبير من الاتفاقات التي عقدت خلال القرون التالية بين بلادي بابل وآشور . وثمة نص يعرف بتسميته " التاريخ المعاصر " يصف العلاقات بين البلادين خلال قرون عدة ، وهو يروي أخبار تلك التحالفـات ، وكـذلك الـصراعات العسكرية . ولم يتضح بعد ؛ فيما إذا كان الحديثُ — في أحد النصوص — عـن إرسال كمية عشرين تالنت من الذهب من مصر إلى آشور ذا علاقة مع النشاطات السياسية الخارجية لآشور .

كانت مملكة ميتّاني تراقب باهتمام وحذر الأحداث في مدينة آشور . وفي سنة 1421 ق.م قام الملك الميتاني سَوَشْتَتَر بحملة عقابية إلى آشور ، ونهـب المدينـة ، وجلب منها غنائم إلى قصره في وَشّوكَنّي عاصمة المملكة الميتانية ، ومن أبرز تلك الغنائم بوّابة مطلية بالذهب والفضة .

شهد مطلع القرن الرابع عشر ق.م صراعاً حول وراثة العرش في البلاط الميتاني ، وبرز تياران ضمن الأسرة الملكية الحاكمة، وتبع كلاً منهما أنصار راحوا يتصارعون، وبات الوضع السياسي مضطرباً. راقبت القوى المجاورة هذا الوضع بعناية، واستغلته بنجاح ، واستطاع الحثيون والآشوريون أن يستميل كل منهما طرفاً مـن طـرفي الصراع الميتاني الداخلي ، نظراً للأهمية الاستراتيجية التي تمتعت بها المملكة . وبـدأ حاكم آشور الملك آشور أُبَلِّط الأول يدعم الطرف الذي استماله لمحاربة الطـرف الثاني الموالي للحثيين ، والمتمثل بالوريث الجديد ، بعد مقتل الملك تُشْرَتّا .

لقد كان ثمن دعم الطرفين غالياً ، فقد استولى الآشوريون مقابل ذلك على الخزينة الملكية ، وتمّ أسر عدد من أفراد الطبقة الحاكمة الميتانية ، ونُقلوا إلى آشور ، كما احتلوا المناطق الميتانية المركزية . ولكن الطرف الموالي للآشوريين لم يستطع في النهاية فرضَ حكمه ؛ لأن الحاكم المدعوم من الحثيين عسكرياً نجح في استعادة أجزاء من المملكة السابقة ، وتم تنصيبه ملكاً من قبل الحثيين . على الرغم من ذلك أثبتت آشور حضورها — بهذا الدور المتميز كقوة سياسية مستقلة — إزاء القوة الكبرى الأخرى ؛ أعني الحثيين .

تلا ذلك عقد اتفاق بين المملكتين الحثية والميتانية ، وتم زواج الملك الجديد من أميرة حثية . ويبدو أن ذلك يدلل على تحقق نوع من الاعتماد على الذات لدى ملك ميتاني. حقيقة الأمر هي أن مملكة ميتاني السابقة تحولت إلى دمية بيد الحثيين ، وحاجز لصد الحملات الآشورية المتجهة نحو الغرب .

لقد كثّف آشور أبلّط الأول علاقاته مع البلاط المصري ، على أمل كسب شريك قوي في مواجهة القوة الحثية العظمى . وقد عثر في تل العمارنة (في جنوبي مصر) على اثنتين من رسائله الموجهة إلى الفرعون المصري ، وذلك ضمن مجموعة كبيرة من المراسلات الدبلوماسية الدولية المصرية خلال عهد الفرعونين أمنوفس (أمنحوتب) الثالث وأمنوفس (أمنحوتب) الرابع (أخناتون) . وقد صيغت معظم رسائل المجموعة باللغة الأكّدية التي كانت تستخدم خلال القرن الرابع عشر ق.م كذلك مراسلات دولية .

لم تقتصر هذه السياسة الجديدة على مصر ، بل وجد آشور أبلّط الأول طريقاً جديداً لعلاقاته مع بلاد بابل المجاورة ، إذ زوّج ابنته مُبَلّطات شِروا من ملك بابل الكاشي بورنا بورياش ؛ وكانت المملكتان آشور وبابل قد عقدتا من قبل اتفاقاً حول الحدود المشتركة بينهما .

على الرغم من أن تأثير آشور السياسي كان محدوداً من الناحية الجغرافية، ولكنه يدل على حصول تطور استمر بمرور الزمن ، خلال القرن التالي ، وقاد إلى تكوّن إمبراطورية آشورية .

من اللافت للانتباه أن التسمية " بلاد آشور " ظلت تظهر في اللقب " ملك بلاد آشور" ، وهذا يعني أن التحول من دولة مدينة صغيرة المساحة إلى دولة واسعة كان محققاً من الناحية اللغوية .

ب- مواصلة الحملات :

واصل الآشوريون في مطلع القرن الثالث عشر ق.م ، خلال عهد أدد نيراري الأول ، الضغط العسكري على المناطق الباقية ضمن نطاق مملكة ميتاني . فقد اتهم الملك الميتاني شَتّوارا سيده الحثي في إحدى الرسائل بالاكتفاء بالنظر إلى ما يحدث له ، وعدم التحرك ، إذ يقول :

ولكن الآن؛ إن كان لرجل خصمان في قضية ، الأول يستمر في المطالبة بحقّه، أما الثاني فلا يستمر في المطالبة بحقّه ! لقد طلب ملك بلاد آشور نبوءة من الكهّان، وتصرّف وفق تعليمات إله الطقس .

لقد تصرف ملك آشور حقاً ، وسار بحملة ضد مملكة ميتّاني. وثمة تقرير مفصل يوضح سير الأحداث من وجهة نظره ، يقول فيه :

عندما عزم شَتُّوارا ملك بلاد خاني جَلْبَت (اسمٌ آخر لميتّاني) على معاداتي ، وشرع في ممارسات عدائية ، قبضتُ عليه بأمرٍ من الإله سيّدي (.....) ، وأحضرته إلى مدينتي آشور . لقد جعلتُهُ يُقْسِم ، ثم تركته يعود إلى بلاده . وصرتُ أستلم منه سنوياً — طوال حياته — الجزية في مدينتي آشور .

ولكن – فيما بعد – تمرّد ابنه وازا شَتّا، وصار معادياً لي، وشرع في ممارسات عدائية. لقد سار إلى بلاد ختّي طالباً المساعدة ، حمل للحثيين هداياه ، ولكنهم لم يقوموا بمساعدته .

بفضل الأسلحة الجبّارة للإله آشور سيدي (.....) ضربت واحتليت تَئيدُ مقرّه الكبير (وكذلك المدن :) أَمَسَكّو ، كَخَت ، شورو ، نَبُلا ، خُرّا ، شُدُوخو ، وَشوكنّي .

لقد نهبتُ ثروات تلك المدن ، وكنوزَ أسلافه ، وموجودات قصره ، وأحضرتها إلى مدينتي آشور (.....)، أعطتني الآلهة العظام كل المناطق من تَئيد حتى إرّيدِ ، من إلُخَت

حتى جبال كشياري (....) حتى ضفاف الفرات ، وقد سيطرت عليها . كلّفت بقية شعبه بأعمال شاقة ، أما هو شخصياً فقد أخرجت نساء قصره وأبناءه وبناته وأتباعه من مدينة إرّيد ، وأحضرتهم هم وممتلكاتهم أسرى مقيدين إلى آشور .

بذلك أضحى مصير ميتّاني محتوماً ، وصارت مقاطعة تابعة تدفع الجزية كمرحلة تمهيدية قبل خضوعها التام للسيادة الآشورية .

إن نص أدد نيراري الأول الذي أوردناه يعدّ أنموذجاً من حيث أسلوب صياغة تقارير الحكام الآشوريين فيما بعد . لقد كانت مدوّناهم قبل ذلك مجرد نقوش قصيرة توثق أعمال بناء وهبات نذرية ، نظمت بأسلوب تقليدي محدد . ولكنها توسعت لدى صياغة تقارير الحملات واكتسبت حيوية وتنوعاً ، وشكلت بدايات لظهور أسلوب تعبيري كتابي خاص في القرون التالية؛ هو أسلوب صياغة الحوليّات الآشورية التي جمعت بين عدد وفير من النقوش، وعرضت أخبار الأعمال العسكرية المتتالية ؛ سنة بعد سنة .

يُفترض وجود أعمال تصويرية عن ذلك ؛ إلى جانب الصياغة الكتابية لها ، فقوائم الموجودات التي تعود إلى القرن الثالث عشر ق.م تذكر معلّقات جدارية عليها صور مدن وحيوانات وبشر . ويمكن أن تساعد المشاهد المنحوتة في الحجر على تكوين تصوّر عنها ، وقد وصلتنا تلك المشاهد في هيئة زخارف جدارية أو أنصاب فنية مستقلة ، كالتي تسمى بـ " المسلاّت " على سبيل المثال . وقد عثر على تلك الأعمال الفنية في نينوى ونمرود وخورس آباد، وهي تقدم انطباعاً راسخاً عن الآشوريين .

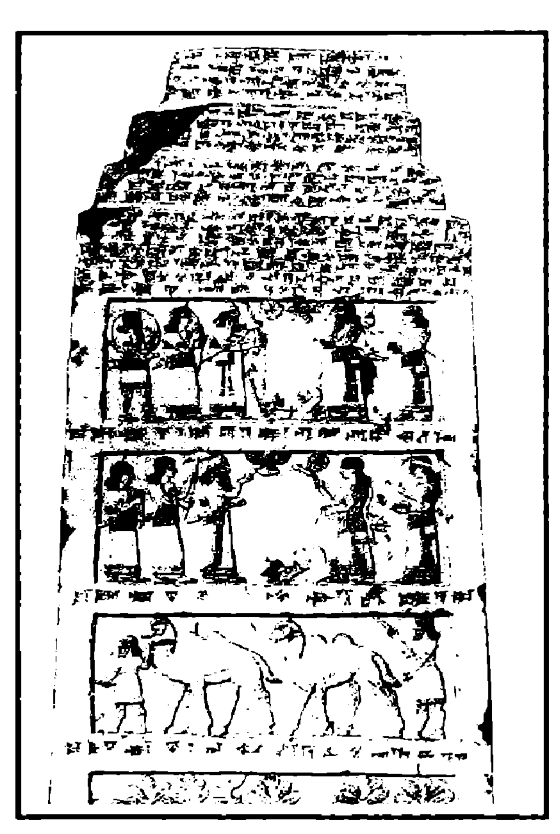
على الرغم من الانتصارات العسكرية التي حققتها آشور في منطقة الخابور العليا، فقد ظلت بعيدةً عن الإقرار بها كقوة سياسية . ففي رسالة عثر عليها في العاصمة الحثية ختّوشا نجد أن الملك الحثي مورشيلي الثاني يهاجم أدد نيراري الأول الملك الطموح ، ويرفض معاملته كحاكم في مستوى مماثل . يقول له :

أنت تتحدث باستمرار عن انتصارك على وازاشَتّي ، وعن شؤون بلاد الحوريين . لقد انتصرتَ بقوة السلاح ، وتغلّبتَ على تابعي ، ولكن هل صرت بذلك ملكاً عظيماً ؟

كيف لك أن تتحدث باستمرار عن الأخوة ... من أي منطلق يتوجب عليّ أن أكتب لك عن الأخوة ؟ مَنْ يكتبُ لمن عادةً عن الأخوة ؟ هل يكتب المرء شيئاً إن لم تكن هناك أخوة متبادلة ؟ لماذا إذن يتوجب عليّ أن أكتب لك عن الأخوة ؟ أنت وأنا هل ولدنا من أُم واحدة ؟! كما إن جدي وأبي لم يكتبا عن الأخوة إلى ملك بلاد آشور ، كذلك لا تكتب أنت إليّ عن الأخوة ، بل ولا تتحدث عن مقام الملك العظيم .

ولكن خليفة ختوشيلي الثالث وجد نفسه مضطراً إلى استخدام نبرة أخرى في رسائله ، بسبب القوة المتنامية لملوك آشور . فهو يقرّ في رسالة إلى الملك الآشوري بوضوح ؛ بأنه بات ملكاً عظيماً ، وليس مجرد حاكم آمر من الدرجة الثانية .

يبدو أن العلاقات بين الدولتين ظلت باردة ، على الرغم من وجود رسائل صيغت بلطف وأسلوب دبلوماسي متبادل بينهما ، كما ظهرت أحياناً تعبيرات توحي بالصداقة بينهما .



الشكل (2) المسلة السوداء ، من عهد شلمنصر الثالث ، من نمرود

ج - آشور على درب التحول إلى قوة عظمى :

كانت العاصمة آشور قد نمت خلال تلك المرحلة . وتمكن الملوك الآشوريون بفضل أسلاب الحروب من بناء تحصينات المدينة وتوسيعها ، وتجديد الأماكن الدينية ، وتوسيع المنطقة الجنوبية من المدينة ، وتشييد قصور فخمة . وقد أسهم الذهب المصري في ذلك . وللحصول على هذه المادة الثمينة نجد — على سبيل المثال — أن آشور أُبَلِّط الأول يرسل رسالة إلى الفرعون ، وبعد مقدمة تقليدية والاستعلام عن صحة الفرعون ، وإعلامه باستلام بعض الهدايا (عربتين ، حصانين أبيضين ، ختم من حجر اليَشْب) ، يصل الملك الآشوري إلى غايته ، إذ يقول :

هل يعدّ هذا (ما أرسلته لي) هدية ملك ؟ الذهب في بلادك كالتراب تماماً ، وليس على المرء إلا أن يجمعه . لماذا يُمنع عنّي ؟ إني أفكّر بتشييد قصر جديد . وثمة حاجة إلى ذهب كثير لزخرفته ، فأرسله إليَ .

عندما كتب سلفي آشور نادِن أخي إلى مصر (طالباً الذهب) أُرسل إليه عشرون تالنتاً من الذهب . عندما كتب ملك خاني جَلْبَت (ميتانَي) إلى مصر لأبيك ؛ أرسل إليه عشرين تالنتاً من الذهب . والآن أنا في مستوى ملك خاني جَلْبَت ولم ترسل لي سوى ..... من الذهب . إنها كمية لا تكفي للسفر ذهاباً وإياباً ولأجر رُسُلي .

باتت النهضة الاقتصادية والسياسية واضحة من خلال التجهيزات التي تمت في مدينة آشور . وبدأ الملوك يكلفون الكتّاب بتدوين إنجازاتهم الداخلية والخارجية في نقوش كتابية مفصلة، ولكن— على الرغم من ذلك— لم تكن سيادة آشور في مطلع القرن الثالث عشر ق.م راسخة بعد ، إذ تدلل الحملات العسكرية المتكررة التي قام بها الملكان أدد نيراري الأول وخليفه شلمنصّر الأول على أنهما لم يتمكنا بشكل فعّال ودائم من فرض السيطرة على المناطق الواسعة الخاضعة للسيادة الآشورية .

كان سكان المناطق الخاضعة للسيادة الآشورية يحاولون من حين إلى آخر التمرد ضد السادة الجدد ، وكانت المجموعات البدوية المقيمة في مناطق البادية بين نهري الفرات ودجلة، وفي منطقة شرقي دجلة، تشكل عقبة خاصة إزاء الحكم الآشوري. ولذلك كان من الضروري جداً إعادة تنظيم شؤون المنطقة كلها من جديد .

ولعل من أبرز ما ساعد في ذلك إقامة مؤسسات إدارية آشورية، وتمركز وحدات عسكرية دائمة . وقد انتهى تنفيذ ذلك خلال عهد الملك شلمنصّر الأول . وبذلك تم تشكيل مقاطعات عديدة خاضعة للإدارة الآشورية ، وقد استفيد في ذلك وبشكل منظم من مباني الإدارة الميتانية القائمة .

كانت السلطة العليا في المقاطعة بيد "حاكم المقاطعة" الذي يشرف على الإدارة الاقتصادية في منطقته . أما المؤسسة المركزية لهذا النمط الإداري فكان يمثّلها القصر الملكي الذي كان يراقب وينظمّ واردات الوحدات الإدارية كلها، عبر نظام متطور للمحاسبة ، وإسهام مجموعة من موظفين منظمين وفق تسلسل إداري دقيق .

أدار شؤون القرى الصغيرة ضمن المقاطعات حكام أو مراقبو القرى . بينما كان السكان ينصرفون إلى ممارسة الأعمال الزراعية وما يرتبط بها من أشكال الإنتاج الأخرى . وكان القصر الملكي هو الذي يقسّم مجموعات العمل المتنوعة ، ويتم توزيع الأتعاب على القوى العاملة في هيئة حصص محددة ؛ كل حسب مكانته وإنجازه، وضمت تلك الحصص مواد غذائية وملبوسات. وكان قسم من المنتوجات يسلّم إلى مركز المملكة ؛ إلى القصر الملكي ومعبد الإله آشور .

لعب المندوبون الملكيون دوراً مهماً في هذا الهيكل الإداري المرتب وفق درجات عدة ، وكانوا موظفين مكلفين بالعمل إلى جانب المسؤولين المحليين ، ومسؤولين أمام البلاط الملكي مباشرة ، أي أمام الملك في آشور .

أما المنتوجات المتبقية في المقاطعات فكانت تخصص للضمان الغذائي المحلي . وتم في المراكز الإدارية ، وكذلك في العاصمة آشور، توثيق دقيق مفصل للمواد المُسَلَّمة سنوياً من قبل المقاطعات المختلفة . وكانوا يوثقون الضرائب التي ما أُمكن تحصيلها – بسبب سوء موسم الحصاد ، على سبيل المثال – ، ويصفونها بمبالغ ناقصة متبقية .

كشفت التنقيبات الأثرية في عدد من المراكز الإدارية عن أجزاء من مثل تلك المحفوظات في القصور ، منها – على سبيل المثال – ما وجد في مدينة دور كتليمّو (حالياً تل شيخ حمد) على الخابور .

بنيت هذه المدينة خلال عهد شلمنصّر الأول وابنه توكولتي نينورتا الأول لتكون مقراً لحاكم المقاطعة . ولإنها تمتعت بموقع استراتيجي مهم ، ضمت أيضاً القيادة العسكرية لحماية القسم الغربي من المملكة الآشورية. كان يقم فيها "الوزير الكبير" الآشوري الذي كان من أفراد الأسرة الحاكمة في آشور، ويراقب الأحداث في الجهة الغربية والشمالية الغربية من المملكة. ومنها انطلقت حملات عسكرية محدودة إلى المناطق الحدودية، وكان الوزير الكبير يمارس نوعاً من الحراسة العسكرية، ونجد مراراً في المراسلات الموجهة إليه من أجزاء المملكة المختلفة إشارات إلى عمليات نهب من قبل عصابات قطّاع الطرق ومجرمين فارّين وأناس مشردين، مع رجاء القيام بالمساعدة.

فعلى سبيل المثال؛ كتب شخص يدعى سين مُدَمِّق إلى الوزير الكبير آشور إدّين رسالة طويلة معقدة ، جاء فيها :

عمّ كتب إليّ سيدي (أي : الوزير الكبير) (في رسالته) أعني قوله : لماذا لم يتعقب سكان وَشّوكَنّي (الهاربين) ؟ .

(الوضع هو كالآتي :) لقد التهم الجراد مزروعاتهم . وبعد أن استهلكوا الحمّص أيضاً ؛ لم يبق أحد منهم في المدينة . الموجودون فيها هم خمسون جندياً كاشياً ؛ أسرى وسجناء ، وخمسون جندياً حورياً ، كلهم أسرى . أما المكلفون من قبلك بالحراسة فلم يبق رجل منهم إطلاقاً .

إن سين مُدَمِّق يعرض بذلك سبب عدم الملاحقة . ثم ينتقل إلى الحديث عن رسالة ثانية للوزير الكبير ، فيقول :

لقد أحضر سِقي باب سُكّال رقيمَ سيدي إليّ ، (وفيه ما يأتي :) لماذا لم تعوّض عن أضرار اختفاء رجال وحمير من مدينة دمايا ؟

لقد عوّضت عن الحمير ، ولكنهم رفضوا استلام تعويضات عن الرجال .

هنا يُضاف عرضٌ رسمي لمشكلة، ولكن يصعب فهم جوانبها: من هم الفاعلون؟ وأين حدثت ؟ ولصالح من ؟ وغير ذلك .

هناك مصادر أخرى من النمط نفسه ، ولكن الكثير مما يرد فيها مازال غير واضح ، ومع ذلك فهي تساعد على تكوين تصور عن طبيعة الحياة اليومية في

المجتمع ، التي كانت تخضع للتبدل بتأثير التعليمات الرسمية للسلطة الحاكمة . كما إنها تشكّل أساساً لكتابة التاريخ الحضاري .

شغل الآشوريون — كما يبدو – المناصب المختلفة في الإدارة تماماً . كما يمكن استنتاج وجود عدد كبير من أفراد الأسر المستقرة في آشور منذ القـــديم وكانـــت ذات تأثير فاعل أيضاً ، وكان هؤلاء بالطبع يهدفون من عملية خدمة الملـــك إلى تحقيق مصالح خاصة بهم. وثمة شواهد ضمن المحفوظات الملكية المكتشفة في العاصمة آشور تؤكد أنهم كانوا يمارسون نشاطات تجارية خاصة على نطاق واسع .

كانت المجموعات البدوية — التي سبقت الإشارة إليها — تعدّ من المشاكل التي انشغلت بها الإدارة في المناطق المحتلة الجديدة دائماً . وقد استوطنوا بشكل خـــاص مناطق البادية في الجزيرة ، وكذلك في شرقي نهر دجلة .

لقد تحركت من الجانب الغربي من البادية السورية – العربية مجموعات متنقلة بشكل متتال، عبر الفرات ، نحو الشرق ، وهي تظهر في المصادر الكتابية بتسميات مختلفة، مثل الأخلامو ، السوتو . وقد خضعت بعض منها للإدارة الآشورية من خلال عقـــد اتفاقات حول المراعي معها، ومن ثم صار بالإمكان مراقبة تحركاتهـــا . وقامـــت الهيئات الإدارية في المقاطعات بتكليف هؤلاء البدو بتربية قطعان المواشي ، كمـــا أسهموا في خدمات أخرى للآشوريين، مثل التجسّس والسفارة، والنشاطات التجارية والأعمال الزراعية ، والمشاركة في مجموعات عسكرية ضمن الحملات الآشورية.

ولكن لم يتم كسب المجموعات البدوية كلها بهذه الطريقـــة ، بـــل وردت في النصوص مراراً الشكوى من هجمات نهب قامت بها على المستوطنات والمسافرين والقوافل التجارية . وبذلك شكل البدو خطراً على علاقات الدولة الآشورية مـــع جيرانها ، وقد كانت تلك العلاقات توثّق عبر التبادل الدبلوماسي المنتظم ، وإرسال الرسل والمراسلات . وغالباً ما كانت تلك الوفود تحمل معهـــا هـــدايا ثمينـــة ، ويؤدي توقّف حركتها إلى حدوث سوء تفاهم ، ومن ثم إلى ظهـــور مـــشكلات سياسية . كما إن التجارة ؛ ولاسيما التجارة الخارجية، كانت تتأثر بتلك العلاقات الرسمية .

شكلت التجارة الخارجية خلال النصف الأول من الألف الثاني ق.م أساس الازدهار الاقتصادي في آشور ، ولكنها اتخذت منحى آخر خلال النصف الثاني من الألف الثاني ق.م . فقد نجحت آشور في تحقيق تجارة تبادلية رابحة ، كما تزايدت فيها حركة تأمين النواقص التي تحتاج إليها ، من خلال عمليات استيراد منظمة . ولعل أبرز ما يدخل ضمن ذلك الإطار تأمين المواد الخام التي تفتقر إليها بلاد آشور؛ ولاسيما المعادن اللازمة لتصنيع الأسلحة ، وكذلك المواد الكمالية .

ومقابل استيراد هذه المواد ، كان يتم تصدير بضائع منتجة ، بشكل كامل أو جزئي ، في بلاد آشور . ولم يكونوا يتاجرون بالمواد المستوردة ؛ بل بالملبوسات المصنوعة في ورشات الإنتاج التابعة للمؤسسات الحكومية، وفي مشاغل الأسر الكبيرة في بلاد آشور. وقد شكل اتساع نطاق المجالات الاقتصادية وكثافتها أساساً لذلك؛ ولاسيما مجال تربية الحيوان الذي كان يوفر الصوف والجلود بكميات ضخمة . وكانت عمليات التصنيع تسير وفق أنظمة اقتصاد القصر الملكي المبرمجة .

خدمت هذه التجارة — بالدرجة الأولى — المصالح الحكومية وصفوة المجتمع . وتمّ سد الحاجة إلى تلك المواد اللازمة — بشكل متزايد — من خلال أسلاب الحروب والجزية الدورية التي كان تدفعها شعوب المناطق المحتلة . وذلك مع تزايد وتيرة الحملات العسكرية الآشورية في المناطق الأصلية لتلك المواد .

صحيح أن هذا الأسلوب في تأمين الاحتياجات كان يحقق الغاية ، ولكنه مع ذلك تضمّن في ذاته مشكلة طويلة الأمد في البنية الداخلية للدولة ، ظهر تأثيرها خلال القرون التالية ، إذ تحولت عملية نمو وتيرة الحملات العسكرية الخارجية إلى غاية قائمة بذاتها لدى السلطة الحاكمة .

كما حصلت تغيرات ضمن المجتمع أيضاً، فقد صارت الأسر ذات النفوذ التجاري في مدينة آشور ، التي كانت تسيطر على التجارة خلال العصر الآشوري القديم ، تهتم بمسائل إدارة المناطق المحتلة والتغلغل الاقتصادي فيها . وكان غناها ونفوذها يعتمد بشكل متزايد على قيامها بمراقبة أوضاع المراكز الاقتصادية. كما إنها استغلت الفرص ضمن مجالات الأعمال الإدارية والعسكرية ، وحققت مكاسب فيها .

إن الوثائق التجارية التي خلّفها بابو أخا إدّنّا أحد كبار رجالات البلاط الآشوري تبين أنه كان يزاول التجارة على نطاق واسع ؛ إلى جانب نشاطه السياسي . وكان لديه عدد كبير من الموظفين ، ويمتلك مخازن تجارية في أماكن مختلفة ضمن المملكة الآشورية. كما كانت هناك أسرة أخرى تمارس الزراعة في مساحات واسعة خارج مدينة آشور ، وتنشط في مجال الاتجار بالقروض .

وبالمقابل من هذه الأسر الكبيرة المتنفذّة والثريّة ، كان يوجد عدد ضخم من القوى العاملة والعبيد الذين لا يملكون شيئاً . وهؤلاء لا نجد لهم صوتاً في المصادر الكتابية ، وإنما نستقي أخبار أوضاعهم بشكل غير مباشر من إشارات صغيرة إليها .

كان العمال العاملون في المجالات الوظيفية ضمن المؤسسات يستلمون أجورهم في هيئة مواد غذائية ، مثل الحبوب والبقوليات ، وقطع الملابس أحياناً . ومن غير المعلوم إلى أية درجة ، وبأية شروط ، كان يسمح لهم بزراعة مساحات صغيرة لتأمين احتياجاتهم الخاصة ، وذلك لأن المصادر الكتابية الحكومية لا تقدم في الواقع معلومات عن الأمور التي لا ترتبط مباشرة بمصالحها . ومع ذلك يمكن للمرء أن يستخلص من الوثائق المتعلقة بالأملاك الخاصة وحق الوراثة أنه كانت هناك بالتأكيد ملكية خاصة غير حكومية .

د- توكولتي نينورتا الأول أنموذج الحاكم الآشوري :

وصلت المنطقة الخاضعة للرقابة الآشورية، خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر ق.م ، إلى درجة من الاتساع لم تشهدها من قبل . فخلال حكم الملكين شلمنصّر الأول وابنه وخليفه توكولتي نينورتا الأول سقطت مناطق أخرى في الشمال والشرق بيد الآشوريين. وبذلك أضحت مملكة آشور تشكل تهديداً حقيقياً لمملكة بابل المتاخمة لها من جهة الجنوب .

لقد استغل توكولتي نينورتا الأول – بشكل صوري – قيام التجار البابليين بتجاوزات حدودية، وغيرها من المزاعم التافهة ، لتدبير حرب مع كشتيلياش الرابع الحاكم على عرش بابل . وقد تمكن من خلال تنظيم حملتين وظّف لهما نفقات

باهظة من إلحاق الهزيمة بالقوة البابلية ، وأسر الملك كشتيلياش ، الذي يرجح أنه عاش بقية حياته أسيراً ذا رعاية خاصة في بلاط الحاكم الآشوري .

وفي سنة 1215 ق.م سار توكولتي نينورتا بجيشه حتى العاصمة بابل، واحتلها، ونهب منها كمية ضخمة من الأسلاب ، ومن بينها عدد كبير من الرُّقُم الطينية الثمينة التي دُوّنت عليها نصوص تمثّل مختلف أشكال التقاليد الكتابية التعليمية . كما أمر أحد الكتّاب بنظم ملحمة بطولية رائعة فنياً تعظّم حملته ضد بابل، وتمدحه شخصياً وتصفه بجالب السلام والملك العادل .

بالطبع يبدو أنه لم يحاول إخضاع مناطق أخرى في جنوبي بلاد الرافدين ، كما أنه — بخلاف خلفائه في الألف الأول ق.م — لم يعتل عرش بابل، بل كلّف حكّاماً بإدارة شؤون المدينة . وحسب المصادر الكتابية ؛ فإن السيادة الآشورية في بابل انتهت بعد سنوات قليلة ، ويبدو أن الوجود الآشوري في بابل كان ضعيفاً ، مما مكّن المعارضة البابلية من طرد المحتل بسرعة .

كان توكولتي نينورتا قد بدأ قبل حملته إلى بابل بالتخطيط لإقامة مدينة جديدة، واختار موقعاً لها في الضفة الأخرى (الشرقية) من الفرات ، على بعد نحو ثلاثة كيلومترات شمالي آشور، وسمّاها كار توكولتي نينورتا؛ أي "ميناء توكولتي نينورتا".

لقد بناها توكولتي نينورتا الأول — كما يقول — بأمر من الإله آشور لتكون مدينة دينية . يقول في أحد النصوص :

في السابق؛ طالبني الإله آشور سيدي بإقامة مدينة دينية على الضفة الأخرى من مدينتي (أي آشور) مقر الآلهة، ودعاني لبناء مزاره. بأمر من الإله آشور الذي يحبّني أقمتُ في الجهة المقابلة لمدينتي آشور ... في مناطق المراعي والبلاد المقفرة ؛ حيث لا يوجد بيت ولا مسكن ، ولم يتكوّم تلّ أو يتجمع التراب ، ولم تُصَفّ آجرّات البناء ، مدينةً للإله آشور على الضفة الأخرى ، اسمها " كار توكولتي نينورتا " .

بيّنت التنقيبات الأثرية ودراسات المسح الأثري في أطلال تلول العَقَر أن مساحة المدينة بلغت على الأقل 240 هكتاراً، وكانت أجزاء منها محاطة بسور ضخم . وتم الكشف فيها عن بوّابات ومجمع ديني ضخم مخصص لعبادة الإله آشور ،

وكذلك أساسات قصور وبقايا دور سكنية ، وبات واضحاً الآن أنها تمثل الشواهد الوحيدة على العمارة في محيط مدينة آشور ، بعد شواهد العصر الآشوري القديم .

حمل كل من معبد الإله آشور والقصر الملكي اسماً يختصر حق سيادة الإله والملك في إقرار هادف محدد ، فقد سمي المعبد إكور مِشَرّا " مزار الجميع " ، وسمي القصر إجال مِشَرّا " قصر الجميع " .

يمكن معرفة تفصيلات الأعمال في كار توكولتي نينورتا من السجلات الدقيقة للإدارة الآشورية . ومما نعرفه منها أن أسرى الحملات العسكرية إلى بابل سُخّروا في أعمال بناء المدينة الجديدة .

إن طلب بناء مدينة للإله آشور خارج مدينة آشور أمر يتردد في النقوش الكتابية؛ كما هي الحال في تقارير كثيرة عن بناء المدينة ، ولكن ذلك كله كان بالتأكيد بمنزلة الإهانة لدى بعض ذوي النفوذ المعاصرين للملك . أما معرفة الدوافع التي دفعت توكولتي نينورتا إلى تنفيذ هذا المشروع الضخم الذي استغرق سنوات عدة، فلا يمكن بالطبع سوى طرح افتراضات عنها ، ومنها أنه لم يكن يتوافر في آشور ، المدينة القديمة جداً سوى أمكنة ضيقة قليلة لتنفيذ مبانٍ جديدة ، كما إن المنطقة العليا في المدينة كانت مبنية بشكل مكثف كلها ، ولم يكن بالإمكان تشييد مبان متميزة إلا على حساب مبان أقدم ، ولعل المحاولة الوحيدة تتمثل ببناء ما يسمى بـ " القصر الجديد " .

ولكن هذا كله لا يمكن أن يكون الدافع الأساسي ، بل يبدو أنه كان من المخطط له نقل مكان شعائر عبادة الإله آشور من مدينة آشور إلى مدينة كار توكولتي نينورتا ، وهو أمر يرتبط على الأرجح بتوتر العلاقات مع المؤسسة الكهنوتية القوية في معبد الإله آشور في مدينة آشور . في هذه الحال كان ذلك خطوة لم يجرؤ عليها ملك آشوري من قبل ، ولا خلال القرون التالية ، إذ كان من الثابت أن شعائر عبادة الإله آشور يجب أن تمارس في مدينة آشور فقط . أما في خارج آشور فلم يكن لهذا الإله أماكن شعائر منظمة ، على الرغم من أهميته ضمن إطار الديانة الرسمية الآشورية ، وذلك على عكس آلهة رافدية أخرى ، كان لها عدد كبير من المعابد في أنحاء البلاد كلها .

هـ- موت توكولتي نينورتا الأول ، ونتائجه :

لم يستمع توكولتي نينورتا الأول زمناً طويلاً بمقرّه الجديد ، فقد اغتاله أحد أبنائه في مدينة كار توكولتي نينورتا سنة 1197 ق.م ، وبالتأكيد بمعرفة الدوائر المتنفذة في آشور وموافقتها .

إن المصادر الكتابية الرسمية التي تعود إلى الفترة التالية لموت توكولتي نينورتا شحيحة ومتناقضة ، ولكن يبدو أن بلاد آشور دخلت في أزمة سياسية داخلية ، حيث تأججت الخلافات حول الخلافة ، وأهمل النشاط السياسي الخارجي .

قبل فترة قصيرة ؛ وخلال التنقيبات الأثرية في موقع تل صبي أبيض الذي كان مقراً إدارياً خلال العصر الآشوري الوسيط ، في أقصى المناطق الغربية من المملكة ، قرب نهر البليخ ، تم الكشف عن عدد كبير من النصوص الكتابية ، وهي تتضمن معلومات جديدة عن الوضع في غربي المملكة آنذاك .

ومن النصوص المتميزة بينها رسالة استلمها مدير شؤون المدينة مَنّوكي أدد من رجل يدعى أُبْرو أرسلها من مدينة آشور. كان أُبْرو قد سافر إلى آشور بعد موت توكولتي نينورتا للمشاركة في جنازته ومعرفة تصورات الملك الجديد . (ويفترض في هذا الوضع حصول تغييرات في جميع الوظائف الإدارية) .

يذكر مرسل الرسالة أن جميع الموظفين الكبار في الإدارة الآشورية تجمعوا للمشاركة في هذا الحدث الحكومي الرسمي، وكذلك ملوك آخرون . وبشكل غير مباشر ؛ يتضح من الرسالة أنه وجد على الأقل حزبان كانا يطمعان في حكم بلاد آشور ؛ حزب الملك المتوفّى من جهة ، وحزب المعارضة في الجهة الأخرى ، وقد برز بقيادة آشور نادن أبلي ابن الملك المتوفى ، والذي استلم العرش . ويرجح أنه كان مدعوماً من المجموعة التي كان البلاط الملكي قد كلّفها بإدارة شؤون المناطق الغربية من المملكة . ولكن يبدو أن حكام عدد من المقاطعات الإدارية — ومنهم منوكي أدد حاكم صبي أبيض — لم يقرروا موقفهم ، وفضّلوا الانتظار ، بسبب الأوضاع غير الواضحة بعد .

كانت المؤسسة الإدارية راسخة بشكل كاف خلال القرن الثالث عشر ق.م ، وذلك – على الأقل - لدرجة أن السيادة على القسم المركزي من المملكة الآشورية بقيت مستمرة .

تتالى على عرش آشور خلال سنوات معدودة ثلاثة من أبناء توكولتي نينورتا . وبموت الابن الثالث ظهر مرة أخرى وضع جديد ، حيث يبدو أنه لم يبق هناك وريث مباشر للعرش . وبذلك انقطعت السلسلة القبلية للحكام الآشوريين الذين توارثوا خلال قرون عدة حق الحكم من جيل إلى آخر . وبذلك بات واضحاً أنّ ثبات قانون الوراثة الآشوري كان يشكل قوة حقيقية .

ثم تولى الحكم نينورتا ابيل إكور أحد أمراء فرع آخر من السلالة الملكية كان أحد أفراده خلال القرون الماضية ، منذ عهد شلمنصّر الأول ، يتولى منصب الوزير الكبير ، وبيده أمر اختيار مديري شؤون الأجزاء الغربية من المملكة.

يمكن عرض تصورات محدودة عن فترة حكمه، فالإدارة الآشورية بشكلها المعروف من قبل ظلت مستمرة في الواقع ، ولكن بالتأكيد بدأت تحصل تغيرات في مناطق الأطراف . ويبدو جلياً أن ضعف نفوذ الإدارة المركزية قاد إلى أن مسؤولي الإدارت المحلية الآشورية صاروا يتبعون مبدأ الوراثة في الاحتفاظ بالوظائف الإدارية ضمن نطاق أُسَرهم . وبهذه الطريقة ظهرت سلالات حاكمة صغيرة تكرر ممارسة أشكال عدة من أساليب السيادة .

خلّف هؤلاء " الملوك الصغار" نقوشاً كتابية تذكّر من حيث الأسلوب التعبيري والكتابي بنقوش البناء لملوك آشور. وقد شيّدوا – وفق أسلوب الملوك الآشوريين – مدناً حملت أسماء مشيّديها ، ومنهم آشور كِتّي لِيشِر الذي أنشأ قرب مقره الرئيس مدينة سُمّيت دور (أي : حصن) آشور كِتّي لِيشِر ، وأمر ببناء قصر فيها . وقد كشفت التنقيبات الأثرية عنها في موقع تل بديري على نهر الخابور .

لقد ظهر لدى هؤلاء الحكام – الذين كانوا يأتون في المرتبة الثانية بعد الملك – تسلسل شرعي وفق النسب ، وكانوا يستخدمون حق الاعتراض في المجالات الوظيفية ، بمثل ملوك آشور تماماً .

بشكل مختصر ، يمكن القول إن سلالات محلية فرضت نفسها في أطراف المملكة الآشورية . وقد ظلت وفيّة في تبعيتها للحاكم الأعلى ، ولكنها بـــالطبع تمتعـــت باستقلالية كافية لممارسة سياسة خاصة في مناطق سيادتها الصغيرة .

في مطلع القرن الثاني عشر ق.م حدث بشكل نهائي — بعد مرحلة طويلة مـــن الاضطراب — انهيار المملكة الحثية، وأسفر عن فراغ سياسي في شمال غرب سورية. ومع استلام تجلت فليسر الأول عرش آشور بات هناك ملك يسعى كأســـلافه إلى توسيع نطاق مناطق السيادة الآشورية. فبعد استلامه الحكم مباشرة، بدأ أولاً بتنظيم حملات إلى منطقة بحيرة وان، وضد القبائل المقيمة في المناطق الجبلية الـــشمالية . ثم في حوالي منتصف فترة حكمه سار حتى البحر الأبيض المتوسط ، وكذلك إلى بلاد بابل .

ثمة تقارير مفصلة عن أعماله — منها ذلك النص الذي استخدم في سنة 1857م في تأكيد فك رموز الكتابة المسمارية الأكّدية — تقدم لنا معلومات وافيـــة عـــن أعماله العسكرية المختلفة . وفيها يظهر بشكل أوضح من تقارير الحكام السابقين مظهر بات يُعَدّ الآن سمة مميزة لسياسة الحملات الآشورية ، أعني التهجير المـــنظم الهادف وتبديل الهوية السكانية في المناطق المحتلة .

(5) بلاد آشور من نهاية القرن الثاني عشر ق.م حتى منتصف القرن الثامن ق.م : الانسحاب ، التعزيز ، مراحل الحملة العسكرية

آ- الآراميون :

وجد الملوك الآشوريون أنفسهم ، في أواخر الألف الثاني ق.م ، في وضع جديد تمثّل في مواجهة تلك المجموعات البشرية التي تعيش حياة بدوية ، في الصحارى والبوادي الممتدة على أطراف الهلال الخصيب .

هذه المجتمعات القبلية كانت منذ ذلك الزمان جزءاً من إطار الحضارة الشرقية القديمة . وكانت تلك القبائل قد تخلت بشكل كبير عن الارتباط بأي شكل من أشكال الدولة، لأن قيام الدولة اعتمد في حقيقة الأمر على عملية استقرار سكانها . وقد ظل موضوع الصراع بين سكان المدن المتحضرين وسكان البادية المتخلفين " الذين لا يخضعون لحكم " شائعاً في الأدب والشعر منذ الألف الثالث ق.م حتى أواخر التراث الكتابي المدون بالكتابة المسمارية .

وتولى البدو ، كما ذكرنا سابقاً ، ضمن إطار الممالك الكبرى ذات الاتساع الجغرافي الواسع خلال العصر البرونزي ، القيام بأعمال معينة تتناسب وقدراتهم وطباعهم ، مثل تربية الحيوان والتجارة الخارجية وأعمال إرشاد القوافل والتجسس ونقل الأخبار والمراسلات . ومع دوام هذا التعايش الاجتماعي ، يبدو أن البنى الداخلية لجميع المجتمعات المساهمة فيه تعرضت للتبدل .

ومع اختفاء القوى العظمى الحثية والمصرية عن منطقة شمال غرب سورية ، في منعطف القرن الثالث عشر نحو الثاني عشر ق.م، وكذلك ضعف بلاد آشور ، نشأ وضع جديد في شمالي بلاد الرافدين وفّر إمكانات تطور جديدة للمجتمعات القبلية.

كانت الدراسات القديمة ترى أن سبب انهيار الممالك العظمى هو التغلغل المكثف للقبائل البدوية وشبه البدوية فيها ؛ علاوة على هجمات الشعوب المسماة بشعوب

البحر . ولكن اليوم يعتقد الباحثون أن ازدياد قوة المجتمعات القبلية كان بـــالعكس مظهراً مرافقاً ونتيجة من نتائج انهيار القوى العظمى. وبشكل عام لا يمكن توضيح الحقائق المختلفة عن الظروف التي أدت إلى ازدياد قوة الآراميين إلا بشكل تقريبـــي. وكانت تسمية الآراميين هذه إحدى المسميات التي صارت تستخدم في النـــصوص الآشورية بدلاً من مسميات عدة لتلك المجموعات .

إننا مضطرون إلى الاعتماد على المعلومات الشحيحة عنهم في المصادر الكتابيـــة الآشورية والبابلية ، وبالتأكيد يجب الأخذ بأخبارها بحذر ، لأنها ليست وافيـــة ولا تعكس الحقيقة تماماً .

لقد حدثت مشاكل خلال القرنين الثالث عشر والثاني عشر ق.م مع مجموعات الشعوب غير المستقرة في المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات . وقد اســـتفادت هذه القبائل من الاضطراب السياسي الداخلي في بلاد آشور ، وما أسفر عنها من ضعف في السياسة الخارجية ، واستطاعت خلال القرن الثاني عشر ق.م أن تتوسع شيئاً فشيئاً باتجاه المنطقة المركزية الآشورية على نهر دجلة .

ب- تجلت فليسر الأول :

تميّز تجلت فليسر الأول (1114-1076 ق.م) بين ملوك أواخر العصر الآشوري الوسيط ؛ ولاسيما بفضل نشاطاته السياسية الخارجية التي دوّنت في تقارير مفصلة عن أعماله .

تدل أخبار انتصاراته ، كما في النص الآتي ، على مواجهات عنيفة مـــع هـــذه الشعوب، ولكنها لا تفيد كثيراً في الصياغة التاريخية لأحداث العصر. جاء في تقريره:

جهّزت عرباتي وقواتي، وسرت نحو البادية. سرت لمحاربة الأخلامو — الآراميين ، أعداء الإله آشور سيدي . سرت ونهبت من حدود بلاد سوخو حتى كركميش في بلاد ختّي (الحثيين) ، في يوم واحد .

لقد استطاع تجلت فليسر الأول - كما يظهر التوسّع الجديد في المناطق الخاضعة للسيادة الآشورية — أن يضع — على الأقل — حدّاً لانتشار القبائل ، ويفرض عليها

الضرائب ، ويقلّص حجم قدراتها الذاتية في تأمين حاجاتها الاقتصادية . وبذلك تمّ بالتأكيد وضع حد مبدئي للمشكلة البدوية ، ولكنها لم تُحلّ تماماً .

وشكلّت الأسس التنظيمية الواردة في المعاهدات ، إلى جانب الانتصارات العسكرية وبعدها ، خلال هذه المرحلة من التاريخ الآشوري أيضاً أداة سياسية مهمة، كما يُظهر هذا المقطع المأخوذ من نقش كتابي للملك تجلت فليسر الأول . يقول في تقرير عن احتلال بلدان نائيري الواقعة في المناطق الجبلية الشمالية ما يأتي :

لقد أسرتُ جميع ملوك بلدان نائيري، وهم أحياء. أشفقت على هؤلاء الملوك وأبقيتهم على قيد الحياة. حرّرتهم من سلاسلهم وقيودهم أمام الإله شمش سيدي، وجعلتهم يقسمون أمام الآلهة الكبرى على معاهدة تبعية إلى الأبد وفي المستقبل كله .

أخذت أبناءهم ورثاء حكمهم أسرى، وفرضت عليهم جزية مقدارها ألف ومئتا حصان، مئتا رأس من المواشي . ثم سمحت لهم بالعودة إلى بلدانهم .

وعلى الرغم من التهديد بالعقوبات القاسية في معاهدات التبعية، تمّ نكث القَسَم فيها بين حين وآخر ، وهبّت ثورات ضد السيادة الآشورية . وثمة تقارير كثيرة في حوليات الملوك الآشوريين تتحدث عن عقوبات بحقّ أتباع خرجوا على الطاعة . وبذلك بات أسلوب الحكم واضحاً ، تمثل في إخضاع الحكام المحليين اقتصادياً وقانونياً لآشور ، مع تركهم يحتفظون في الغالب بوظيفتهم الأصلية كـ "حكام" . ومن خلال سياسة الضم والربط هذه أوجد ملك آشور على حدود مملكته حلقة من الإمارات الخاضعة له ، وتدفع الجزية المنتظمة المفروضة عليها، ولكنها تتمتع بالمقابل بالاستقلالية في مجالات كثيرة .

وبلا شك ، حصلت فيها ثورات على السيادة الآشورية مراراً ، ثم تمّ الاحتلال التام لتلك المناطق ، وهُجّر قسم كبير من سكانها — من ضمنهم أفراد صفوة المجتمع أيضاً — وضُمّت إلى مقاطعات بلاد آشور .

ج- بداية الألف الأول ق.م :

اقتصر الوضع في بلاد آشور خلال القرن العاشر ق.م — بشكل أساسي — على الدفاع عن المناطق المركزية ، بينما شهد القرن التاسع ق.م تغيرات في الأوضاع .

كانت المناطق الواقعة بين نهري الفرات ودجلة ، خلال حكم آشور ناصر بال الثاني (883-859 ق.م) وحكم ابنه وخليفه شلمنصّر الثالث (858-824 ق.م)، بشكل عام، تحت الحكم الآشوري . وتمت آنذاك مهاجمة الممالك الآرامية الصغيرة القائمة عند منعطف الفرات بحملات عسكرية عدة، أو ضُمت إلى المملكة الآشورية.

لقد أُخضعت المملكة الآرامية الصغيرة بيت عديني، التي كانت مناطقها المركزية تمتد تقريباً بين البليخ والفرات ، وتقود مجموعة من الممالك الصغيرة المتمردة على الاحتلال الآشوري في أعالي الفرات ، وضمت إلى المملكة الآشورية بشكل دائم . وذلك بأن قام شلمنصر الثالث ، بعد مواجهات طويلة الأمد ، باحتلال عاصمة المملكة تل برسيب (حالياً تل أحمر) . وقد أمر بإجلاء حاكمها وأسرته والطبقة الآرامية العليا فيها ، وتدمير المدينة . ثم بنى قصراً جديداً وعيّن في المدينة إدارة آشورية ، وكي يكمل عمله تماماً أطلق على مدينة تل برسيب اسماً جديداً ، هو كار شلمنصّر أي " ميناء شلمنصّر " .

تميز تطور الأوضاع في بلاد آشور خلال القرنين التاسع والثامن ق.م باستمرار سياسة الحملات العسكرية للملوك الآشوريين. وباتت حملاتهم دورية منظمة لمحاربة تحالفات القبائل المختلفة في الجزء الشمالي الغربي من سورية وفي مدن الساحل الفينيقي.

وبذلك لم تعد منطقة وادي الفرات تشكل منطقة حدودية ، لزمن طويل ، بل تحولت بشكل متزايد إلى منطقة عبور. لقد سار الآشوريون مراراً باتجاه البحر الأبيض المتوسط، وأخضعوا كثيراً من الممالك الصغيرة والكبيرة في المحيط السوري - الفلسطيني. ولكن تبين أنه من الصعب ممارسة السيادة في داخل تلك المناطق الواسعة التي باتت خاضعة للآشوريين، وذلك بسبب سعتها الجغرافية وتنوع أشكال الارتباط بها .

لقد نشأت علاقات ترابط كثيرة ومتمايزة بين المحتلين الآشوريين والسكان المحتلين في تلك المناطق. وقد تفاوتت أشكال الاحتلال ؛ فقد كان في بعضها احتلالاً تاماً ، وفي بعضها الآخر نوعاً من الانتداب ، حيث صارت مقاطعات منها تلتزم بدفع الجزية للآشورية ، كما اكتفي في بعضها الآخر بعملية التفاهم المتبادل . وفي آخر الأمر تميزت المناطق المحتلة في المملكة الآشورية ببنية مترابطة عمادها الإرهاب وفرض المعاهدات. وكانت الإدارة العسكرية والمدنية فيها تستند إلى نظام المقاطعات

الذي سبق أن أثبت فاعليته لدى تطبيقه في المناطق الآشورية المركزية. ولعل الفارق الأساسي في ذلك كان يكمن في أن المقاطعات المستحدثة الجديدة امتدت في مناطق جغرافية واسعة . واتبع الحكام المعنيون هناك أسلوباً خاصاً في الإدارة ، مكّنهم من تنفيذ المهام الصعبة، ومن ناحية أخرى أسهمت الثروات الاقتصادية في مناطق إدارتهم في ازدياد نفوذهم الاقتصادي ، ومن ثم السياسي أيضاً .

أما المناطق الجبلية الشمالية فقد شهدت حملات متكررة إليها أيضاً ، مما جعل حدودها مع المملكة الآشورية تتبدل بين حين وآخر .

د- كلخو : إنشاء مقر رسمي جديد :

استفاد الحكام الآشوريون من الأموال المأخوذة من تلك المناطق ، على شكل أسلاب أو ضرائب أو جزى ، في تنفيذ برامج عمرانية واسعة النطاق . وانعكست قوة سيادتهم بشكل واضح في بناء القصور الضخمة ، وإنشاء المدن ، والتجهيزات الباهظة في المباني الدينية .

لقد كان آشور ناصر بال الثاني أول حاكم- بعد توكولتي نينورتا الأول- يعود مرة أخرى إلى محاولة بناء مقر رسمي جديد له . وقد اختار لذلك موقع مستوطنة صغيرة واقعة على بعد 35 كم جنوبي نينوى على نهر دجلة، تدعى كلخو (حالياً : نمرود) . وقد لعب اكتشاف هذا الموقع دوراً مهماً في إعادة اكتشاف بلاد آشور في القرن التاسع عشر الميلادي .

كان الموقع مأهولاً بشكل مؤقت منذ الألف الثالث ق.م . كما إننا نعلم من نقش كتابي أن شلمنصر الأول قام بالبناء في كلخو ، وقد أكدت البحوث الأثرية حصول العمران هناك خلال العصر الآشوري الوسيط .

بلغت المدينة حجماً ضخماً خلال حكم آشور ناصربال الثاني ، وكان العمل في بنائها قد بدأ سنة 878 ق.م . أحاط سور المدينة الضخم بمساحة قدرها /360/ هكتاراً ، ولم ينته العمل فيها إلا في عهد شلمنصر الثالث (858-824 ق.م) ابنه ، حيث أضيفت إليها قصور ومعابد آلهة عدة. وفي سنة 864 ق.م تم الاحتفال بافتتاحها وانتقال الملك ورجال بلاطه من آشور إليها ، وذلك ضمن احتفال دام أياماً عدة .

ثمة مسلة عليها نقش كتابي يصف هذا الحدث ، ويذكر أن 69.574 شخصاً دعي للمشاركة في الاحتفال، علاوة على سكان المدينة الجديدة الذين كان عددهم 16.000 . وخلال الاحتفال تم استهلاك 1.200 بقرة ، 17.000 خروف ، 1.000 أيّل ، 15.000 بطة ، 1.500 وزة ، 31.000 عصفور ، 10.000 سمكة ، 10.000 بيضة ، 10.000 قطعة خبز ، 10.000 جرة من البيرة ، 10.000 قُربة من الخمرة، وكذلك الحبوب، وأنواع كثيرة من الفواكه والخضار ، التمور والزيتون ، وأنواع من مشتقات الحليب .

كانت هناك مساحات فارغة واسعة تمتد على ضفاف القناة الرئيسية التي تزوّد المدينة بالماء ، ووجدت فيها أنواع كثيرة من الحيوانات والنباتات التي تعبّر عن الغنى والخصوبة ، كما كانت تقدم صورة عن طبيعة المناطق الخاضعة للملك الآشوري " سيد جهات الكون الأربعة " .

اجتمعت في قصر آشور ناصربال الثاني في كلخو أشكال مختلفة من الفن التصويري المعبّر عن السيادة ، منها أعمال النحت النافر التي تصوّر الملك في أوضاع مختلفة ، لأغلبها طابع شعائري . أما في قصور أخرى للملوك الآشوريين من زمن أحدث فقد أضيفت فيها مشاهد الحرب وصور متسلسلة لمشاهد أخرى . وقد أُرفقت تلك الصور بتقارير مكتوبة مفصلة عن أعمال الملوك .

وكشف في مدينة إمجور إنليل (حالياً : بَلَوات) عن صفائح برونزية تكسي الأبواب، عليها مشاهد تصويرية مماثلة، تعود إلى عهد آشور ناصربال الثاني وشلمنصّر الثالث . وهي دقيقة جداً وتولّد الإحساس بمدى براعة الآشوريين والغرباء المهجرين في التصوير التسجيلي لقوة الملك الآشوري .

يبدو أن كلخو احتفظت بوظيفتها كعاصمة سياسية حتى أواخر القرن الثامن ق.م. ومن بين ما كشف فيها محفوظات الحكام المحليين بين 835-710 ق.م. وفيها بدأت في سنة 746 ق.م ثورة أسفرت عن استلام تجلت فليسر الثالث العرش الآشوري . وتفيد النصوص بأنه استقبل فيها مندوبي الملوك الآخرين ورسلهم، كما إن سرجون الثاني حرص على تفقد قواته العسكرية فيها ، قبل أن يبني مقره الجديد الخاص في دور شرُّكين . وأخيراً تم فيها إحياء شعائر القسم بمناسبة تسمية آشور بانيبال ولياً للعهد . وخلال الهجوم الميدي بين 614-612 ق.م تم تدمير المدينة مرتين .

لسنا متأكدين من أن ثورات اشتعلت ضد السياسة العمرانية لآشور ناصربال الثاني وابنه، كما حصل مع توكولتي نينورتا الأول خلال عهده. ولكن من المعروف أن الثورة الآشورية الداخلية بقيادة آشور داين أبلو ، أحد أبناء شلمنصر الثالث ، ثارت بسبب سياسة الملك المالية، التي استنفدت موارد الخزينة. وقد تحالفت خلالها ضد الملك العجوز ست وعشرون مدينة في المناطق الآشورية المركزية - باستثناء كلخو - ، وكان على رأسها مدن آشور ونينوى وأربيلا .

هـ- آشور وبابل :

اضطر شمشي أدد الخامس ابن شلمنصر الثالث وولي عهده إلى طلب العون من ملك بابل أخيراً ، حتى استطاع في سنة 822 ق.م إعادة الأوضاع إلى سيطرته . قد يثير هذا التدخل البابلي لصالح الملك الآشوري الدهشة أول الأمر ، لكن النص المسمى " التاريخ المعاصر " — الذي أشرنا إليه آنفاً — يفيدنا بأن علاقات بلاد آشور مع جيرانها في الجنوب كانت خلال مطلع الألف الأول ق.م حسنة سلمية في الغالب ، باستثناء حدوث مناوشات بين حين وآخر .

وفي مطلع القرن التاسع ق.م قام ملوك آشور وبابل من جديد بتوثيق علاقاتهم من خلال المصاهرات بين السلالتين الحاكمتين. وكانت مثل هذه الصلات الأسرية — كما في الألف الثاني ق.م — تتلازم مع واجب الدعم العسكري المتبادل، والتعاون لحفظ وراثة العرش . ومن أمثلة ذلك ما قام به شلمنصر الثالث من قبل ، عندما قام بالدفاع عن حق مردوك زكير شومي (854-819 ق.م) في عرش بابل ، ضد مطالبة أخيه الأصغر بذلك .

ولكن شمشي أدد الخامس هاجم بلاد بابل ، بعد سنوات قليلة ، ونهب العاصمة بابل . والحقيقة أن أسباب انهيار العلاقات التي كانت حسنة سلمية بينهما حتى ذلك الوقت ، ليست واضحة تماماً . ولكن هذه الأحداث شكلت مقدمة لسياسة جديدة عدوانية جداً اتبعها ملوك آشور إزاء بابل .



الشكل (3) منحوتة من نمرود ، تمثل شلمنصر الثالث والملك البابلي مردوك زكير شومي .

و- النصف الأول من القرن الثامن ق.م ، أشكال جديدة للسيادة :

تتميز فترة الانتقال من القرن التاسع إلى الثامن ق.م بحصول تغيرات في أساليب السيادة في البلاط الملكي الآشوري ، وبين أفراد الطبقة القيادية الآشورية .

وتساعد المصادر على معرفة حقائق مفيدة في هذا السياق ، فحكام المقاطعات الكبرى في المملكة الآشورية اكتسبوا قوة متزايدة في أواخر التاسع ومطلع الثامن ق.م، وأدى ذلك قبيل منتصف القرن الثامن ق.م إلى تمردات بين أقسام من الطبقة الآشورية العليا التي كانت من قبل تشكّل إلى حد ما مجموعة مستقلة اختيرت عملياً من بين الأسر القديمة العريقة في مدينة آشور وبالدرجة الأولى من أفراد قبيلة الملك. وحصلت حالات اضطراب عندما قام بعض الحكام والوجهاء ، الذين لم يكونوا ينتمون إلى تلك المجموعة ، بتحركات مختلفة وأخضعوا مناطق واسعة من المملكة الآشورية لسيادتهم ، وصار لهم تأثير على الملك ذاته .

وكان من أبرز رحالات تلك المجموعة القائد العسكري دَيّان آشور الذي كان قد أدّى دوراً مهماً في الثورة على شلمنصّر الثالث ، وكذلك القائد شمشي إيلو ، والناطق العسكري باسم القصر الملكي بِل خَرّان بِلو أُصُر . وقد كان هؤلاء قد خدموا عدة ملوك بشكل متتالٍ ، فاكتسبوا قوة ونفوذاً .

لقد كان شمشي إيلو — على سبيل المثال — يقيم في مدينة تِل برسيب، واستطاع أن يقوّي مركزه عندما تولى العرش الآشوري أدد نيراري الثالث بن شمشي أدد الخامس في سنة 810 ق.م، وصار هو وأمّ الملك شَمّو رامات (سمير أميس) أهم شخصيتين فاعلتين في الحكم .

كما إن موظفين كباراً آخرين صنعوا لأنفسهم هيبة ونفوذاً ، وهكذا نشأت خلال القرن التاسع ق.م قوة من صفوة المجتمع الآشوري تشكل خطراً على طبيعة أشكال السيادة التقليدية . ومن ثم ضعف شأن السيادة المطلقة للملك على المناطق الآشورية المركزية والمناطق الخاضعة لسيادتها .

وبدأت شخصيات قوية من الطبقة العليا تتصرف في أجزاء المملكة الخاضعة لحكمها كالملوك، إذ صارت تقلّد الملك الآشوري في كل المظاهر الشخصية للملك، وتبني قصوراً ، وتؤسس مدناً تحمل أسماءه ، وتقيم مسلاّت تعبّر عن انتصارات أو تحدّد حدوداً ، بل إنها أعفت مدناً ومناطق من الجزية المنتظمة المفروضة عليها ، وهو أمر كان حتى الآن محصوراً بقرار من الملك ذاته . واستمر ذلك حتى بعد منتصف القرن ، حيث استلم العرش تجلت فليسر الثالث الذي تمتع بقوة كافية لوضع حد لقوة أولئك القادة .

مقدمات نشأة الإمبراطورية الآشورية

آ- تجلت فليسر الثالث : سياسة التوطين وسيلة للسيادة

وسّع تجلت فليسر الثالث نطاق المملكة الآشورية ؛ ولاسيما نحو الجنوب . فبعد أن سادت علاقات سلمية – إلى حد ما، ولزمن طويل – بين بلادي آشور وبابل، بسبب المعاهدة التي كانت تجدّد بينهما بشكل منتظم ، استغل تجلت فليسر الاضطراب الحاصل في بابل حول وراثة العرش، واتخذه مبرراً للقيام بحملة ضد ملك بابل الذي كان حليفاً له ، وتمكن أخيراً من هزيمته .

لقد تطلّبت المكانة الخاصة لبابل، وصعوبة السيطرة على المنطقة الجديدة الواسعة، أن يبحث تجلت فليسر عن حل جديد ، فكان ارتقاؤه شخصياً عرش بابل . وبهذا الحدث اكتسبت عملية إخضاع بلاد بابل مظهراً مختلفاً تماماً عن كل الممارسات العسكرية أو الدبلوماسية التي قامت بها آشور حتى ذلك الحين .

كان من أهم الأساليب الاستراتيجية في الحملة العسكرية الآشورية القيام بالتدمير المنظم للمدن والمستوطنات المحصنة. لقد قتلوا السكان أو هجّروهم ، ونهبوا المدن . وبذلك أرغموا خصومهم على الخضوع ، وتوجّب على الآشوريين إعادة تنظيم الجوانب الاقتصادية والإدارية في المنطقة ، وهو أمر يبدو أنهم كانوا قد تنبهوا إلى ضرورته من قبل .

كما كانت مسألة السعي لتأمين مصادر مالية جديدة من المناطق المحتلة – سواء أكانت في هيئة أسلاب الحرب وكميات الجزية ، أم في هيئة ضرائب يمكن تسليمها خلال فترة زمنية طويلة – مظهراً مألوفاً في سياسة الحملات الآشورية وقد تطلب تنفيذ مثل هذه " السياسة الضريبية " أن يتم بأقصى سرعة ممكنة إعادة تنظيم وسائل الإنتاج في المناطق المحتلة ؛ ولاسيما الإنتاج الاقتصادي. ولذلك تم من جديد إعادة بناء المستوطنات المدمرة من جديد ، والاهتمام بالزراعة وتربية الحيوان وورشات التصنيع . ومما يدل على حصول ذلك المراسلات الجارية بين المقاطعات والبلاط الملكي الآشوري. ويبدو أن المهجَّرين استخدموا لتحقيق هذا الهدف أيضاً.

لقد مارس الملوك الآشوريون ، منذ أواخر الألف الثاني ق.م ، بشكل منظّم سياسة تبديل مواطن المجموعات البشرية في المناطق المحتلة ، بدرجة كبيرة . ولكن هذه السياسة اتخذت أبعاداً أكبر وجديدة خلال عهد تجلت فليسر الثالث، فحسب ما جاء في تقاريره نقل خلال حملة واحدة له 65.000 شخصاً من منطقة زاكروس. وكان الغرض من ذلك هو تحقيق هدفين ؛ الأول إضعاف المناطق المحتلة من خلال تبديل الزعامات المحلية بإدارة موالية للسيادة الآشورية ، والثاني كسب قوى عاملة تستخدم في المشاريع العمرانية المختلفة للملوك الآشوريين .

وُجد أحياناً مهجّرون من مناطق الساحل المتوسطي في المنطقة الميدية ، ولذلك يمكن للمرء أن يتصور مدى اتساع البعد الجغرافي الذي توجب على أولئك الناس أن يقطعوه ! ونجد في سجلات الإدارة الملكية والنقوش الملكية — كما في نقش (تقرير) تجلت فليسر الثالث الذي ذكرناه — ذكراً لتلك الأعداد ، فقد تضمنت جداول فيها معلومات دقيقة عن الأعداد والعمر والجنس والمهنة والوضع الصحي للأسرى. كما إن التقارير الكتابية الدورية عن سير أعمال التهجير وتبديل المواطن، وكذلك بعض المشاهد الفنية التصويرية، تدع المجال لتصوّر مدى تأثير ذلك على المهجَّرين . كان كثير من الرجال والنساء والأطفال يموتون خلال عملية النقل ، أو يمرضون ، وفي أحايين نادرة كان بعض الأسرى يتمكّن من الهروب . وكان ضباط وجنود آشوريون يرافقون عملية النقل ، وثمة تقارير تشير إلى أن هؤلاء استغلوا مكانتهم في التصرف بالمواد الغذائية المخصصة للمهجرين خلال ذلك .

كما استخدمت عملية التهجير أداة للتهديد بالعقاب ، فقد أنذر بها المتحالفون معا الملوك الآشوريين وفق معاهدة ، إن تصرفوا بشكل مخالف للمعاهدة ، ففي معاهدة موقعة بين آشور نيراري الخامس وماتي إل ملك مملكة بيت آجوشي الآرامية نقرأ ما يأتي :

إن نكث ماتي إل بالمعاهدة .... فإن ماتي إل مع أبنائه وبناته وكبار رجاله وسكان بلاده سيهجَّرون من بلاده. إنه لن يعود إلى بلاده ، ولن يحكم بلاده من جديد .

استطاع تجلت فليسر خلال فترة حكمه أن يوطّد السيادة الآشورية في المناطق الممتدة من شمالي سورية حتى سفوح جبال زاكروس. لقد كان أعداؤه حكام ممالك

صغيرة ومتوسطة، تم إخضاعهم لسيطرة الإمبراطورية الآشورية تماماً ، أو — على الأقل — باتوا تابعين لها ، ويلتزمون بدفع الجزية. ولكن احتلال بلاد بابل يظل أبرز مظاهر تحول بلاد آشور إلى مملكة عظمى (إمبراطورية) .

ب- سرجون الثاني ملك بلاد آشور :

إن شَرُّكين — ومعناه : الملك (الذي) يرسّخ (العدالة) — معروف أكثر بصيغة الاسم سرجون. وقد كان يمتّ بصلة النسب إلى تجلت فليسر الثالث، وعلى الأرجح ابنه من عشيقة كانت أَمَة. لم يكن لاسمه علاقة باسم ملك آشوري بالاسم نفسه ، حكم في القرن الثامن عشر ق.م ، بل يعود إلى قدوة أقدم بكثير ؛ أعني سرجون الأكّدي مؤسس مملكة أكّد في القرن الثالث والعشرين ق.م .

ارتقى سرجون الثاني عرش آشور في شتاء سنة 722 ق.م . وعلى الرغم من أنه كان يستطيع المطالبة بحق الحكم بشكل شرعي ، لأنه الوريث المباشر للملك الآشوري السابق، فإنه لم يكن واثقاً من أن الظروف ستجعله يصعد العرش بيسر .

ولأنه شاع في البحوث منذ زمن طويل، أن سرجون الثاني كان مغتصباً للعرش، ومؤسس سلالة حكم جديدة ، فقد ظهرت تسمية " السلالة السرجونية " كتسمية عامة له ولخلفائه .

يصف سرجون موت سلفه بأسلوب تبريري ، على أنه كان عقاباً إلهياً على جرائمه ، ويبدو أنه لقي الدعم في استلامه الحكم من سكان مدينة آشور، بالدرجة الأولى ، لأن سلفه شلمنصر الخامس انتزع منهم كثيراً من الميزات التي كانوا يتمتعون بها من قبل .

بدأ حكم سرجون بعملية تصفية كبيرة، إذ أجلى أكثر من ستة آلاف آشوري، وصفهم بالمجرمين الأشرار، إلى مدينة حماة السورية. وقد حارب خلال فترة حكمه في جبهات عدة مختلفة، ويمكن تمييز ثلاثة مجالات مهمة مختلفة انشغل بها سرجون، وهي : الصراع مع مملكة أورارتو ، العلاقات المضطربة مع بلاد بابل في الجنوب ، بناء العاصمة الجديدة دور شَرّكين " حصن شَرّكين " .

ج- أورارتو :

شغلت المناطق الحدودية الشمالية الشرقية اهتمام الآشوريين منذ زمن طويل، وقد كان هناك المانّيون ، ومملكة أورارتو التي تأسست منذ القرن التاسع ق.م ، ولقيت اهتمام عدد من الملوك الآشوريين .

يظهر اسم أورارتو في التوراة بصيغة أراراط . وكان الإطار الجغرافي لاستيطان الأورارتيين يشمل جبال أرمينيا، وباتجاه البحيرات: أورميا ، سيفان، وان . وكانت عاصمتهم تدعى توشْبا (حالياً : وان) .

إن تلك المنطقة وعرة ، ويصعب التحرّك فيها ، ولذلك شكلت أورارتو خلال الألف الأول ق.م خطراً حقيقياً على بلاد آشور. وجرت بين الطرفين معارك دائمة على الأرض الآشّورية ، كما تخللها ما يدل على الاستعداد للعيش المتجاور بشكل سلمي .

ربما كان سرجون الثاني قد قرر منذ مطلع عهده أن يعيد أورارتو إلى حدودها بشكل تام حاسم ، حيث يوجد ضمن المحفوظات الملكية الآشورية مجموعة ضخمة من المراسلات التي تعود إلى هذه المرحلة من عهده، وتضيء الأساليب الاستخباراتية في منطقة الحدود الآشورية – الأورارتية . فقد كان هناك جيش من الوشاة بقيادة سنحريب ، ابن سرجون وخليفته فيما بعد ، يقوم بجمع المعلومات التي ترسل بعد ذلك في رسائل إلى الملك . وتظهر هذه الرسائل أنه كانت تتم مراقبة الأحداث في أورارتو بشكل دقيق مفصل .

لقد كان سنحريب الأمير المكلّف بإدارة ذلك يوافي أباه بتقارير مفصلة شاملة ، كما هي حال التقرير الآتي :

"إلى الملك، سيدي. من سنحريب عبدك: .... لقد جاء إليّ أحد رسل أريّا بالخبر الآتي:

لقد كتب زعيم أوكّا إلى الملك الأورارتي يخبره بأن الحكام الآشوريين يشيّدون حصناً في مدينة كُمّي . ولذلك أمر الملك الأورارتي حكامه بالأمر الآتي: خذوا قواتكم ، وسيروا ، واقبضوا على حكام ملك آشور أحياء ، وهم لدى سكان مدينة كُمّي ، وأحضروهم إليّ .

ليست لدي معلومات دقيقة بعد ، ولكن حالما أسمع أكثر (عن الأمر) ، أخبر الأمير بها بالسرعة الممكنة . ولأجل هذا حبّذا تسير قواتي نحوي .... " .

ثم يلي ذلك ذكر مقاطع مفصلة مأخوذة من رسائل أخرى. وهي تظهر – بشكل عام – مدى كثافة شبكة الجواسيس والمخبرين التابعين للملوك الآشوريين، وكذلك التابعين لخصومهم. كما إن عملية نقل الأخبار كانت تتم بشكل متسلسل مباشر ، إذ يبدو أن سنحريب أرسل تقريره الشامل إلى الملك في اليوم الذي قابل فيه الرسول نفسه . وبهذا الأسلوب كانت العاصمة الآشورية تعلم بكل جديد يحصل في أورارتو وغيرها . لقد وجدت شبكات اتصال مماثلة في المناطق الحدودية والمناطق التي تبرز فيها مصالح آشورية .

لقد كانت خدمات نقل الأخبار موجودة – كما رأينا – من قبل . لم تكن المعلومات التي يتم جمعها من خلال المسافرين والتجار كافية من أجل التحضير للحملات العسكرية أو تنفيذها . ولعل وجود " مركز الاستخبارات " في مدينة دور كَتْليمّو على الخابور ، في القرن الثالث عشر ق.م ، دليل على تقليد اعتماد السلطة الآشورية على أعمال التجسس .

تعود معلوماتنا عن حملة سرجون الثاني ضد أورارتو إلى تقرير عن الأحداث، طلب تدوينه بعدها مباشرة. وهو نص يتألف من عدة مئات من السطور، وصيغ في نمط رسالة وجهها الملك الآشوري إلى الإله آشور، وقد حفظت في الأصل في معبد الإله نفسه. ويجمع نص الرسالة ببراعة بين أسلوب صياغة التقارير الحربية الآشورية ، والأسلوب الأدبي الرفيع في وصف بلاد غريبة. وترد فيه – إلى جانب الوصف المألوف للأعمال العسكرية – استطرادات في الحديث عن أمور جغرافية وطبيعية، وعن العادات والتقاليد الشائعة، كعناصر أساسية في النص أيضاً .

وفيه نقرأ الوصف الآتي عن جبل وَؤُش (حالياً : سَهِند) ، قبل الحديث عن التقاء الجيشين الأورارتي والآشوري :

" في وَؤُش الجبل العالي، الذي تصل قمته إلى السحب في وسط السماء، ولم ينفذ إلى قيعانه كائنٌ حي منذ الأزل، لم يكتشف عابرٌ سبيلاً فيه، لم يحلّق فوقه طائر ولم يبن فيه

عشاً لتربية صغاره . هذا الجبل الشامخ ، المنتصب كنصل سكّين، الذي تقطعه الممرات والأنهار القادمة من جبال بعيدة (....) ، يتمدد الثلج عليه ليل نهار ، سطحه مغطى بالجليد دائماً ، فيه يطرح عصفُ الأعاصير كلَّ إنسان ، ويحترق جسده من شدة البرد " .

ويصف - بعد ذلك بقليل ، وباللغة التصويرية ذاتها — انتصارَ الآشوريين على جيش أورارتي ، قائلاً :

أقمتُ مذبحة فظيعة لقواته، نثرت أشلاء جنوده كالشعير، ملأت بها المنخفضات في الجبل ، جعلت دماءهم تجري كسيل جارف في الأفلاق وعلى السفوح ، لوّنت المنخفضاتِ والسهول والمنحدرات بالحمرة ، فبدت كأنها ملأى بشقائق النعمان . ذبحت جنوده ، قادة جيشه ، رماة الأقواس ، حاملي الرماح كشياهٍ عند قدميه (أي قدمي الملك الأورارتي روسا الأول) ، وقطعت رؤوسهم " .

لقد عُدّ انتصار الملك الآشوري نجاحاً متميزاً ، بسبب الطبيعة الجبلية الوعرة ومخاطر أخرى وصفت بشكل مفصل .

إن الطريق الذي اتبعه سرجون الثاني خلال حملته الثامنة هذه غير واضح، ولكن المؤكد هو أنه لم يستطع احتلال توشبا عاصمة أورارتو، ولكنه نهب بلا شك أجزاء واسعة من المنطقة الخصيبة ، وأشعل فيها النيران .

وتحرك سرجون الثاني في طريق عودته ، مع فوج من جنده قوامه ألف محارب منتقى، نحو جبل موصاصير الواقع في المنطقة الحدودية بين بلادي أورارتو وآشور . وهناك لقي مواجهة صغيرة الحجم ، فتصرّف كما في الانتصارات الأخرى ، حيث أمر جنده بأسر جميع السكان هناك وإجلائهم . وبالتأكيد توصل الآشوريين إلى خزائن الكنوز في موصاصير . فإذا ما صدّق المرء المرويات الكتابية ؛ فقد أسفرت أعمال النهب في القصر الملكي وفي معبد خَلْدي إله الطقس الأورارتي ، عن جمع أكثر من طن من الذهب ، وعشرة أطنان من الفضة ، وأكثر من مئة طن من البرونز ، وذلك في هيئة سبائك . ويضاف إليها أكثر من ثلاثمئة ألف قطعة مختلفة تم تسجيلها في قائمة مرافقة للتقرير .

وثمة تفصيلات في هذه القائمة تساعد على تكوين انطباع عن مدى غنى أورارتو التي سقطت بين الآشوريين، جاء فيها:

" سريرٌ من العاج، وسطه من الفضة – موضع راحة الإله – مرصّعٌ بالحجارة النفيسة والذهب (......)، 305.412 سيفاً برونزياً ، (......) ، بقرة مع عجلها من البرونز ، كان الملك سَرْدوري بن إشْبوإني قد أهداها نذراً لمعبد الإله خَلْدي ، ونقش عليها النقش الكتابي التالي (....) " .

لقد توّج نصر سرجون الثاني بانتحار الملك الأوراتي ، حيث وصفه بقوله :

" .... قهره بريق الإله آشور سيدي المنير ، فاستلّ سيفه الحديدي ، وخرق به قلبه ، كخنزير ، وهكذا أنهى حياته " .

أما الخسائر الآشورية فقد كانت – حسب ما ذكره سرجون – قليلة، اقتصرت على : محارب على عربة ، فارسين ، ثلاثة سُعاة .

د- بلاد بابل :

عقد سرجون الثاني في مطلع حكمه أولاً معاهدة مع الحاكم البابلي مردوك أبلا إدّينا الثاني. وكان هذا أحد أمراء قبيلة بيت يَكين المقيمة في أقصى الجنوب البابلي، تميز عن سائر القبائل المجاورة، وانتصر سنة 731 ق.م على تجلت فليسر الثالث، كما استغل اضطراب الأوضاع وغياب الرقابة الآشورية على الجنوب البابلي لدى وفاة الملك شلمنصّر الخامس ، في الصعود إلى عرش بابل . ونظراً لأنه كان على دراية كافية بأوضاع القبائل الكَلْدية في الجنوب ؛ فقد تمكّن من إحكام قبضته على مدن جنوبي بلاد الرافدين الكبرى ، التي تتمتع بنوع من الاستقلال .

يبدو أن سرجون الثاني أهمل أول الأمر مسألة خسارة بلاد بابل ، وتخلّى عن فكرة القيام مباشرة برد عسكري ، بل بالعكس عقد في سنة 720 ق.م معاهدة سلام مع مردوك أبلا إدّينا الثاني ، ظهر فيها الطرفان المتعاهدان بشكل متساو . وقد خلق الهدوء والاستقرار الذي أعقب ذلك، لدى سرجون الثاني، حرية التصرف التي كان يحتاج إليها في سبيل إعادة فرض النظام في داخل مملكته ،ومن ثم الاهتمام بشؤون الأجزاء الشمالية والشمالية الغربية من المملكة .

وفي سنة 710 ق.م انتهت بشكل مفاجئ مرحلة الهدوء الخادع بين آشور وبابل ، وهزم سرجون الثاني المملكة المجاورة في عدة حملات عسكرية ، وأخضعها للسيادة الآشورية – أما مردوك أبلا إدّينا فاضطر للهروب إلى الجنوب أولاً ، ثم يبدو أنه لجأ – بعد دمار مدينة دور تكِين – إلى مملكة عيلام المجاورة . وبقي هناك حتى موت سرجون الثاني ، حيث بذل محاولة جديدة لتغيير أوضاع الحكم في بلاد بابل وإعادة سيادته .

هـ- دُور شَرُكين " حصن سرجون " :

صارت هناك عاصمة جديدة لبلاد آشور خلال حكم سرجون الثاني. فقد أنشأ مدينة دُور شَرُكِين "حصن سرجون" على بعد نحو 15 كم شمالي مدينة نينوى القديمة.

نقّب بوتّا Botta في بقايا هذه المدينة (تعرف حالياً باسم خورس آباد) سنة 1843م، حيث اعتقد بشكل خاطئ أنها مدينة نينوى، وهنا اكتشف أولى التماثيل الآشورية.

بدأ سرجون العمل بإنشاء المدينة سنة 717 ق.م ، بعد أن قام الملك بمصادرة جزء من الأراضي – التي اختيرت للبناء – من أصحابها، لقاء تعويضات لهم. اعتمد تمويل نفقات البناء بشكل أساسي على الموارد المالية التي كان يحصلها الجيش الملكي خلال حملاته ، مع ذلك يبدو أن سلفاً مادية لعبت دوراً معيناً في ذلك ، إذ نقرأ في إحدى الرسائل الموجهة إلى سرجون الثاني شكوى من شخص يدعى سلمانو يقول:

لقد قال الملك، سيدي : لا أحد سيعيد سلفتك قبل أن ينتهي العمل في مدينة دُور شَرُكين !. ولكن علمت أنه تم إرضاء التجار (بالسلفة) مع انتهاء جزء من دُور شَرُكين ، ومع ذلك لا أحد تذكّر سلفتي! هناك 570 مانا (نحو 285 كغ) من الفضة [مختومة بخاتمي] مستحقة الدفع في هذه السنة ، ولم تُرجع لي بعد (.....) .

تابع سرجون الثاني تقاليد الملوك الآشوريين ، ولكنه لم يعد يكتفي بتصوير المناطق المحتلة بشكل رمزي ، أو من خلال تقارير كتابية أعماله فيها ، بل اتبع بما يمكن أن نشبهه بالأسلوب الفني للمنمنمات (المصغرة جداً) . أما تصميم مخطط

المدينة وأسلوب بنائها فقد تم بناء على نصائح إلهية كان الملك الآشوري يتلقّاهـا بشكل مطرد .

واعتمد في تنفيذ الأعمال في مشروع البناء الضخم على أسرى الحروب والمهجّرين، الذين كان يأتي بهم خلال مجريات حملاته العسكرية من جميع أجزاء المملكـة إلى دُور شَرُّكين . وبهذه الطريقة كان يملك تحت تصرفه جيشاً ضخماً مـن القـوى العاملة التي يمكن تسخيرها في ذلك ، ومن ضمنها عدد كبير من أصحاب الحرف اليدوية وغيرهم من المتخصصين في مجالات معينة .

وقد استوجبت عملية تنظم هذه القوى العاملة وإدارتها وتأمين الطعام لها، وكذلك سير أعمال البناء بحدّ ذاتها ، جهوداً وتدابير مضنية من الإدارة الآشـورية . وثمـة مجموعة من الوثائق ضمن المحفوظات الحكومية تقدم انطباعاً عن التنظيم الـداخلي لهذه الأعمال، وهي تبين أن كل مقاطعة من المقاطعات المختلفة ضمن إطار المملكة الآشورية كانت تكلّف بأجزاء معينة من أعمال البناء ، ويتوجب عليها تحضير مواد البناء وتقديم القوى العاملة اللازمة لذلك. وقد أسهمت الخزانة الملكية مالياً في أعمال التنفيذ، كما إن الكنوز المنهوبة من أورارتو كانت مصدراً مهماً آخر لعملية التمويل.

في سنة 706 ق.م تم إحياء احتفال افتتاحي للمقر الملكي الجديد، وبهذه المناسبة انتقلت الآلهة الكبرى بأسلوب شعائري تصويري رمزي من المدينة الدينية آشـور إليها . وشارك في المأدبة المقامة خلال الاحتفال الضخم الحكام الخاضعون للسيادة الآشورية والأصدقاء المتحالفون من خلال رُسُلهم المحمّلين بهدايا ثمينة ، وكـذلك كل شخصية مهمة ، وذي شهرة ، ومن كان يمتلك تأثيراً في بلاد آشور، أو يطمح إلى ذلك . ولذلك شكّل ذلك الاحتفال أبرز الاحتفالات المعروفة آنذاك .

ثمة نقوش كتابية عدة أفاد الملك فيها بأن المدينة الجديدة هذه كانت تمثل صورة عن الكون . وقد حملت البوابات المتعددة وجدران السور فيها عبـارات ، مثـل " الإله آشور ، الذي يديم سيادة الملك إلى الأبد " .

بني القصر الملكي ، وعدد من المقرات الملكية الرسمية ، والمعابد المخصصة للآلهة المهمة ، فوق مصطبة اصطناعية تعلو فوق المستوى الحقيقي للمدينـة . وتفيـدنا

النصوص الكتابية بمعلومات كثيرة عن التجهيزات والأثاث الموجود في داخل المباني المختلفة ، من بينها أعمال معدنية نفيسة ورسوم وزخارف بوساطة آجرّات ملونة وتماثيل فنية حجرية . ومما يقدم فكرة عن أُبَّهَته آنذاك بقايا آجرّات مزجّجة ورسوم جدارية وتماثيل فنية حجرية ضخمة ، كشف عنها خلال التنقيبات الأثرية . و لم يتضح بعد ، فيما إذا كانت منطقة المدينة كلها مأهولة آنذاك .

لقي سرجون الثاني حتفه سنة 705 ق.م، خلال حملة إلى تَبَل الواقعة في جنوب غربي بلاد الأناضول . و لم يكن بالإمكان دفن جثمانه بشكل رسمي لائق، لأنه بقي في يد العدو .

هذه النهاية المهينة — ليس حسب التصوّر الآشوري فقط — استغلتها بشكل دعائي — فيما بعد — مجموعات عدة مستفيدة من ذلك .

تولّى الحكم بعده ابنه سنحريب الذي لم يستخدم المدينة التي أنشأها والده لتكون مقر حكم له ، وصارت بعد ذلك مجرد مقر لحاكم المقاطعة .

(7) إمبراطورية آشور

آ- سنحريب :

إن صيغة اسمه الحقيقية الأكّدية هي سين أخي إريبا ، ومعناه " لقد عوّض الإله سين عن الإخوَة " . وهو لم يكن الابن الوحيد لسرجون ؛ ما دام اسمه يدل على إن إخوة أكبر منه ماتوا مبكراً .

كان يبلغ من العمر أربعين سنة ؛ عندما تولى العرش ، ويمكن معرفة معلومات عن حكمه قبل ذلك من نقوش كتابية رسمية . فقد وصلت إلينا رسائل تعود إلى السنوات التي سبقت ارتقاءه عرش الحكم ؛ حيث كان يعين والده سرجون الثاني ، وهي لا تقدم سوى القليل عن حيويته وقوة نشاطه ودرجة اهتمامه وحصافته . ومما عُني به سنحريب النشاط الاستخباري السري في المناطق الحدودية الشمالية ، وبشكل خاص مراقبة الأوضاع في أورارتو. كما مثّل والده في العلاقات الحكومية، في حال وجوده خارج بلاد آشور، كان يطلب أن تنقل إليه نصيحة والده الملك في رسالة ، وذلك فيما يتعلق بمسائل صغيرة أو كبيرة . ومن رسائله تلك نقرأ :

إلى الملك ، سيدي . من سنحريب خادمك (....) لقد وصل الرسُل من كومّاجيني ، وينقلون معهم الجزية وسبعة أزواج من البغال . الجزية والبغال موجودون بحماية بيت كوماجيني ، وكذلك الرسل ، وهم يأكلون من مؤونتهم الخاصة. هل يتوجّب نقلهم (المقصود الجزية والبغال) إلى بابل (يبدو أن سرجون الثاني كان هناك آنذاك) ؟ دعني أعرف منهم (أي من الرسل)، بأقصى سرعة ممكنة ، ما أمر به الملك سيدي . لقد جلبوا معهم الصوف الأحمر أيضاً . ذكر التجار لي أنهم انتقوا سبعة تالنتات (أي نحو 210 كغ)، مع أن سكان كوماجيني لم يكونوا موافقين ، وقالوا لهم : من تظنّون أنفسكم ؟ لن تقوموا بالانتقاء هنا إطلاقاً. أعتقد أنه يجب نقله، ولتقم ناسجات الملك بالاختيار. ليت الملك سيدي يكتب لي ويبيّن إلى من يجب أن يؤخذ الصوف .

إن موت والده سرجون الثاني أوقعه في خضم المشكلات ، واعتقد كثيرون – كما يبدو – أن النهاية المفجعة للملك كانت عقوبة له ونذير شر لبلاد آشور .

لم يكن ممكناً دفن جثمان الملك المتوفى في آشور ضمن شعائر دينية لائقة به . وكان هذا يعني أنه فات عليه الدخول إلى العالم السفلي ، وكذلك التعزية برحيله ، ولن يكون بإمكان أفراد ذريته من بعده أن يقدموا له نذور الموتى الضرورية ، التي تقدم عادة بشكل منتظم ، وبدلاً من ذلك سيضطر شبح روحه إلى أن يظل هائماً يفتقر إلى السكينة . علاوة على أنه كان هناك خوف من أن يتجه شبح روحه ، كغيره من الأشباح إلى الأحياء ، وقد يسبب لهم الشر . وثمة مجموعة كاملة من شعائر الحماية التي كانت مخصصة لمثل هذه الحالات ، عثر عليها ضمن التراث الكتابي المسماري الذي وصلنا من بلاد الرافدين .

ولهذا السبب فإنه لمن المفهوم أن يبحث الابن والخليف عن وسيلة لتخفيف الأضرار الممكنة على الأسرة الملكية ، وكذلك المرتبطين بها ، وعلى حكمه .

وكان من أبرز المخاوف أن يقوم أعداء سياسيون باستغلال الظرف . و لم يكن هذا الاحتمال غير مبرر، كما يتضح في نص تال يتحدث عن أسباب النهاية المخزية لسرجون الثاني . وقد تمت صياغة هذه الوثيقة (غير الكاملة) التي يصعب فهمها ، بأسلوب روائي خاص ، خلال عهد حفيده أسرحدّون . ويذكر فيها أن كلاً من سرجون الثاني وابنه سنحريب عوقب بموت مخزٍ ، بسبب تفضيل الأول الآلهة البابلية ، ثم الثاني بسبب إعادته الآلهة تلك . والعِبرة المستقاة من ذلك – كما يريد النص أن يقول – هي أن الملك الذي يريد أن يحكم البلادين ، بابل وآشور معاً ، وأن يعفى من مصير مشابه ، يجب عليه أن يحترم آلهة بلاد بابل ومعابدها ، وأن يعظّمها بدرجة مماثلة لآلهة بلاد آشور .

لقد أبعد سنحريب نفسه مكانياً – أول الأمر – عن عرش أبيه بعد استلامه الحكم ، وذلك بأن نقل مقر الحكم من دور شَرُّكين إلى نينوى . وقد كانت هذه المدينة مستوطنة منذ زمن بعيد . وبدأ فيها سنحريب بتخريب قصر قديم ، وشرع في سنة 702 ق.م بأعمال تشييد قصر جديد له ، هذا القصر الذي سمّاه المنقبون الأثريون فيما بعد " القصر الجنوبي الغربي " .

وبدأت — في الوقت نفسه — أعمال مكثفة في البنية الداخلية للمدينة، فقد وُسّع نطاق السور ، وصارت المدينة تمتد على مساحة /750/ هكتاراً . وضم السور خمس عشرة بوّابة تقود إلى داخل المدينة ، وتحمل كل منها اسماً مناسباً ، مثل " ليعش طويلاً حامي الإله آشور (أي الملك)". كما نُظّمت من جديد التحصينات الدفاعية ونظام الطرق وأنظمة المياه والصرف الصحي ضمن المدينة وضواحيها .

كما أمر سنحريب بإقامة حدائق بجانب قصره الجنوبي الغربي، وفي شمالي المدينة، ووضع نباتات وحيوانات غريبة فيها ، أُحضرت من مختلف مناطق جنوبي بلاد الرافدين . وبمرور الزمن صار هناك مشهد يشبه الحال في بلاد بابل .

مازالت المنشآت المائية التي أقامها سنحريب تثير الإعجاب ، حتى اليوم . كان ملوك آشور قد أمروا من قبل ببناء جدران تحيط بالينابيع، وشقّ قنوات مائية نهرية، ولكن بناء المقرات الملكية الجديدة ، خلال الألف الأول ق.م ، مثل كلخو (خلال حكم آشور ناصربال الثاني 883-859 ق.م) ودور شَرُّكين (خلال حكم سرجون الثاني 722 — 705 ق.م) ونينوى (منذ حكم سنحريب ، من 702 حتى 612 ق.م) جعلت المهندسين الآشوريين يواجهون تحديات جديدة . فلم تكن المدن كلها مزوّدة بالمياه الكافية ، بسبب موقعها الجغرافي الطبيعي ، وشكّل ذلك مشكلة كبرى نظراً لأحجام المدن الكبيرة المخطط لها، والاحتياجات الزراعية المطلوبة . إضافة إلى أنه كانت هناك حاجة إلى كميات كبيرة من المياه لسقاية الحدائق الضخمة الفخمة التي صار الحكام يجهزونها باستمرار — منذ القرن التاسع ق.م — بأدوات دقيقة ومريحة جديدة .

لقد تم إنشاء أربعة مشاريع مائية لسحب المياه من المناطق الجبلية القريبة في الجهتين الشمالية الشرقية والشمالية من مدينة نينوى ، ضمن أنفاق وقناطر تمتد نحو محيط المدينة ، وذلك لضمان توفير مصدر مائي كاف ودائم . كما أمر سنحريب بإقامة مروج كثيفة اصطناعية في سرير النهر ، بهدف حماية المدينة من فيضانات مائية ، ويبين هو ذلك بقوله :

من أجل إبطاء جريان المياه في البساتين ؛ أقمت مرجاً زرعت فيه القصب ، وجعلت طائر مالك الحزين والخنازير والأيائل تجوب فيه بحرّية .

تمّ تسخير آلاف العمال خلال السنوات القليلة التي سبقت 688 ق.م في المشاريع المائية المختلفة التي أمر بها الملك . ويعدّ بالتأكيد من أهم إنجازات حكمه القنطـــرة الكبيرة التي أقيمت قرب موقع شيروان ، وقد استخدم في تشييدها أكثر من مليوني قطعة من الحجر الجيري ، وغطّيت بخمس قناطر بطول 280م .

كان الملك الآشوري يهوى الطبيعة ، ولذلك عُني بها ، ليس في مدينة نينـــوى فحسب ، بل في مدن أخرى من بلاد آشور . ويعد التصوير الوصفي المفصل لهذه الإنجازات ، في النصوص الكتابية والأعمال الفنية ، من أبرز الإبداعات التـــصويرية في التراث الآشوري .

ب- تدمير بابل :

كانت طبيعة موقف بلاد آشور من بلاد بابل غير واضحة ، وتعد مـــن أبـــرز المشكلات السياسية الخارجية أمامها ، على الرغم من تبعية بابل الشكلية للمملكة الآشورية . فقد كان مردوك أبلا إدّينا قد حوصر من قبل سرجون الثاني ، واضطر للانسحاب إلى جنوبي البلاد . وعندما اعتلى سنحريب العرش رأى أن الفرصـــة باتت سانحة أمامه للتحالف مع مملكة عيلام المجاورة . وبعد عدة حملات عسكرية في بلاد بابل تمكن من سنحريب أن يرغم مرودك أبلا إدّينا على الهرب إلى مناطق عيلام ، وظل هناك حتى وفاته سنة 695 ق.م وهو يحارب السياسة الآشورية .

حاول سنحريب أن يبقي على عرش بابل أحد أتباعه من البابليين، ولكنه أخفق في ذلك ، فقام في سنة 700 ق.م بتسليم حكمها إلى (أكبر ؟) أبنائه، وهو آشور نادن شومي . لم يتضح بشكل تام فيما إذا كان آشور نادن شومي استلم العـــرش الآشوري رسمياً فيما بعد ؛ بصفته الابن الأكبر لأبيه ، كما يفترض . وثمة باحثون يعتقدون أن سنحريب أوجد منذ ذلك الحين حلاً طويل الأمد لوضع بابل ، وهـــو اعتماد النموذج الذي طبّقه فيما بعد ابنه وخليفه أسرحدّون ، ويتمثـــل في تعـــيين أخين على حكم آشور وبابل .

في سنة 694 ق.م تمكن متمردون من أن يقبضوا على آشور نـــادن شـــومي ، ويسلّموه للعيلاميين الذين قتلوه ؛ كما يعتقد . وثمة رسالة توضح بعض ملامـــح

هذه الأحداث ، وهي رسالة كتبها بعد سنوات كثيرة ، نحـــو 669/672 ق.م ، الأمير الآشوري شمش شوم أوكين الذي كان يحكم آنذاك في بابل إلى أبيه الملـــك أسرحدّون. وفيها تُذكر أسماء بعض كبار الشخصيات المثقفة في بابل، التي أسهمت — كما يبدو — في ذلك التآمر. وهي توضح أيضاً أنه كانت لدى تلك الشخصيات تحفظات على السيادة الآشورية وتعارضها بقوة .

لم تكن مواجهات سنحريب مع القوى المعارضة . ولاسيما مع عيلام ، موفّقة تماماً. وقد دحر جيشه مرات عديدة ، حتى تمكن في 689 ق.م من تحقيق الاحتلال التام لمدينة بابل بعد حصار طويل الأمد . وأمر سنحريب بنقل التماثيـــل الدينيـــة الموجودة في المعابد ، ومنها تمثال الإله مردوك ، إله المدينة وكبير الآلهة البابلية ، إلى بلاد آشور . كما أمر بتدمير المدينة وتوجيه مياه نهر الفرات نحو أسوارها . لقـــد كتب عن ذلك ما يأتي :

وأحرقتها بالنيران . خرّبت آجرّات السور (الداخلي) والسور الخارجي ، والمعابد ، والزقّورة (البرج المدرّج ، المعروف باسم "برج بابل" أيضاً)، ورميتها في نهر الفرات .

وفي وسط هذه المدينة حفرت قنوات ، وملأتها حتى أعلاها بالميـاه . حطمـت أساسـاتها وخربتها كأن طوفاناً دهاها. لقد أغرقتها بالمياه حتى لا يكون من الممكن في المستقبل تمييـز مكان المدينة وبيوت الإله فيها، أبدتها لتصير مجرد حوض مياه .

وقد استقبل هذه التصرّف الهادف إلى الإبادة التامة لمدينة دينية موغلة في القدم — ليس في بلاد بابل وحدها — على أنه جريمة بحقّ إله . ولذلك فإن سبب المصير المشؤوم الذي لقيه سنحريب ، فيما بعد ، أعيد إلى عمله المدمر في بابل ، وتعمّده إذلال الآلهة البابلية .

ج- سياسة سنحريب الدينية :

كان الحدث بالطبع معقداً في حقيقة الأمر ، و لم يكن تدمير المدينة مجرد تعـــبير عن الغضب الملكي . وثمة ممارسات أخرى لسنحريب تدل على أنه حاول إلحـــاق هزيمة دينية بالبابليين ، إلى جانب الهزيمة السياسية . فعلى الرغم من أن بابل كانت منذ أكثر من نصف قرن من الزمن قبل ذلك في الحقيقة جزءاً من المملكة الآشورية؛

فإن مشاعر الاعتداد بالنفس لم تهتز لدى أعيان المجتمع البابلي ، وبشكل خاص لدى رجال المؤسسة الدينية الكهنوتية .

فهل كان سنحريب يأمل من تدمير بابل إذلال تلك المشاعر ؟ أم كان مخططه أكبر من ذلك ، وتمثّل في محاولته التوحيد بين الإله البابلي الرئيس مردوك والإله الرئيس في آشور ؟ ولعل قيامه بنهب تماثيل الآلهة إلى آشور كان خطوة ضمن هذا البرنامج ، وتسير في الاتجاه ذاته أسطورة الخليقة الكبرى المعروفة باسم إنوما إليش enūma eliš نسبة إلى أول كلمتين أكديتين فيها ، وهما بمعنى "عندما في العُلا" . وفيها ينتصر أول الأمر الإله الفتي مردوك على قوى الفوضى ، ثم يعترف به بقية الآلهة ملكاً عليها ، ومهمته إعادة تنظيم الكون .

أما في الرواية (النسخة) الآشورية فيستبدل اسم مردوك باسم الإله آشور ، وبذلك بات آشور إله الجبل المقيم في المدينة الواقعة على نهر دجلة في قمة مجمع الآلهة في بلاد الرافدين .

وأخيراً حاول سنحريب أن ينقل بعض مظاهر الحياة الدينية البابلية إلى مدينة آشور نفسها ، فبعد أن حافظ المعبد الديني في آشور خلال قرون على أسلوبه المعماري دون تعديل ؛ نجد أن سنحريب أوجد فيه عدداً من مظاهر التجديد ، ووسّع المعبد القديم للإله آشور نحو الشرق ليشمل ساحة فيها حوض مائي كبير ، كما أقام - وفق النموذج البابلي - مبنى للاحتفالات خارج المدينة ، وذلك لتقام فيه الشعائر الدينية الضخمة خلال احتفالات بدء رأس السنة .

لقد وجدت في آشور - كما في جميع المدن الشرقية القديمة الكبرى - احتفالات شعائرية دينية كانت تمثل بدء دورة زراعية جديدة، ويبدو أن عهد سنحريب شهد حركة إحياء لهذه الشعائر التي كانت قد أضحت منسية ، بل صارت تتم وفق النموذج البابلي .

وقد كشف في آشور ونينوى عن رُقُم مسمارية تتحدث نصوصها عن أجزاء من الممارسات الشعائرية التي كانت تتم في تلك الدورات الاحتفالية ، وتوضح الدلالات الأسطورية لبعض منها . وتُظهر أساليب الاحتفال في آشور مشابهات وثيقة مع الشعائر التي كانت معروفة في بابل . ويبدو أن التجديدات التي أوجدها

سنحريب لقيت اهتمام خلفائه ، وتابعوا تنفيذها، حتى تحقق انصهار الإلهين آشور ومردوك وتحولهما إلى ألوهية قوية واحدة؛ على الأقل في الفكر الديني الرسمي للدولة.

د- تنظيم وراثة العرش :

كان الوضع في مجال السياسة الخارجية مستقراً بشكل مرضٍ، ولكن قواعد تنظيم وراثة العرش التي أصدرها سنحريب في سنة 683 ق.م قادت إلى معارضة شديدة ضمن نطاق الأسرة الملكية الحاكمة. فقد عيّن ابنه الأصغر أسرحدّون أميراً، ومن ثم وريثاً للعرش ، ويختلف الباحثون حول درجة تأثير نَقيّا والدة أسرحدّون على الملك في هذا القرار ، كما إنه بالطبع ليس مؤكداً أن سنحريب ألغى بذلك قانوناً قديماً صدر في نحو 700 ق.م . على أية حال فإن سنحريب تجاوز في مسألة تعيين أسرحدون عدداً من أبنائه الأكبر سناً، وكذلك العادات والأعراف والقانون الدارج.

مما يوضح أن تصرفه لم يكن مألوفاً اتخاذه إجراءات احترازية كثيرة تهدف إلى إضفاء طابع شرعي ديني على اختياره ، وتأمين حماية ثابتة لأسرحدون . ويلاحظ ذلك في معاهدة مفصلة معززة بالقَسَم تقضي بوجوب حماية الأمير المختار من كل المخاطر؛ ولاسيما من مطالبات غير محقّة من قبل أفراد من الأسرة الملكية الحاكمة .

ليس من المعروف فيما إذا كانت هناك في بلاد آشور قاعدة أساسية تقضي بأن يستلم عرش الحكم دائماً الابن الأكبر للملك . ويمكن بناءً على مراجعة سريعة لعملية تداول الحكم خلال القرون السابقة ، افتراض أنه حصل دائماً صراع حول وراثة العرش ضمن مجموعة أبناء الحاكم المتوفى ، وبين أخوته .

لا توجد حتى الآن قواعد تنظيمية لتحديد وراثة العرش بابنٍ وُلد بعد استلام الحكم، من غير القرن السابع ق.م. وقد دفعت هذه الحقيقة الباحثين إلى استخلاص أن الأمر كان استثنائياً . ومما يؤكد هذا الاعتقاد أن سنحريب أطلق على ابنه بهذه المناسبة اسماً فخرياً جديداً ، إذ صار يحمل اسم " آشور إتِل إيلاني موكين أَبْلي " أي : آشور أمير الآلهة حدّد الابن الوريث .

يروي أسرحدّون ذكرياته عن تعيينه ولياً للعهد ، فيقول :

على الرغم من أنني كنت أصغر أخوتي؛ قام أبي – بأمر الآلهة آشور وسين وشمش وبلِ ونَبو وعشتار نينوى وعشتار أربيل – برفع رأسي بين أخوتي، (إذ قال): هذا هو الابن الذي يرث عرشي .

وعندما سأل بعد ذلك الإلهين شمش وأدد – خلال تقديم النذور لهما – عن رأيهما ، أجاباه بشكل جازم بنعم ، وقالا: إنه وريث عرشك .

وقد احترم حكمهما المهم ، وجمع سكان بلاد آشور ؛ صغاراً وكباراً ، وجمع أخوتي من نسل عشيرة أبي ، وجعلهم يحلفون يميناً أمام الآلهة آشور وسين وشمش ونَبو ومردوك ؛ آلهة بلاد آشور التي تقيم في السماء وعلى الأرض ، يتعهدون فيه بحماية منصبي كولي للعهد .

ولكن يبدو أن ذلك اليمين لم يثنِ أخوته عن الاستمرار في معارضته، إذ:

رسموا مخططات شريرة، نسجوا افتراءات ووشايات وأكاذيب ..... ضدي، زيّفوا حقائق ودبّروا مكائد خبيثة، ومن وراء ظهري نشروا ما يولّد الكره تجاهي. وبهذه الأساليب جعلوا قلب أبي المتعلّق بي يعاديني، بخلاف رغبة الآلهة. ولكن في أعماق قلبه كانت تكمن الرحمة ، وكانت مشاعره تميل إلى أن أمارس أنا الحكم في المستقبل .

مرت بعد ذلك فترة عابرة، لم يعد أسرحدون خلالها الابن المفضل لدى أبيه، وربما كان سبب ذلك تنامي مشكلة وراثته في البلاط الملكي إلى درجة صارت تشكل تهديداً له، أو الإشاعات التي سَرَت حول وضعه الصحي، إذ كان يعاني فعلاً من مرض مزمن .

في كل الأحوال ، نعلم أن سنحريب أرسل ابنه في مطلع سنة 681 ق.م إلى مكانٍ ناءٍ في إحدى مقاطعات المملكة. وفي ذكريات رواها أسرحدون نجد أنه وصف تصرف أبيه هذا إبعاداً إلهياً له بهدف حمايته وحماية حكمه المستقبلي .

لم يؤثر ذلك في قرار وراثة العرش، ولم يتغير. ومن ناحية أخرى لم يتمكن سنحريب من تهدئة الأطراف المعارضة له، بل على العكس نجد أن الأمراء الذين تجاهلهم القرار وأنصارهم اتفقوا على أداء القَسَم والدعوة إلى التمرد على الملك .

وفعلاً ، بعد ذلك بقليل ، تم اغتيال الملك سنحريب من قبل ابنه أُرْدو مولّيسو، وشاركه في ذلك ابن آخر أو أكثر. وثمة نقش كتابي لحفيده آشور بانيبال يذكر أن الاغتيال حصل ضمن معبد في مدينة نينوى .

يتكشف بوضوح في المصادر الكتابية التالية التي تعرضت لهذا الحدث أن موت سنحريب حقق مصالح مجموعات مختلفة . فالملك البابلي نبونئيد الذي حكم في مطلع القرن السادس ق.م رأى في عملية الاغتيال عقاباً لسنحريب جزاء ما تسبب فيه من دمار في مدينة بابل سنة 689 ق.م . كما إن كتاب " العهد القديم " يذكر موته لدى وصف حصار القدس من قبل الجيش الآشوري (سفر الملوك الثاني 19: 35-37) ، وذلك على النحو الآتي :

وكان في تلك الليلة أنّ ملاك الرب خرج وضرب من جيش آشور مئة ألفٍ وخمسة وثمانين ألفاً ، ولما بكّروا صباحاً إذا هم جميعاً جثثٌ ميتة .

فانصرف سنحاريب ملك آشور ، وذهب راجعاً ، وأقام في نينوى .

وفيما هو ساجدٌ في بيت نِسْرُوخ إلهه ضربه أَدْرَملك وشَرَ آصير ابناه بالسيف ، ونجوا إلى أرض أراراط ، ومَلَكَ أسرحدّون ابنه عوضاً عنه .

وبذلك يبدو أن موت الملك الآشوري كان جزءاً من عقابٍ فرضه عليه الإله يهوه.

هـ- أسَرْحَدّون :

يبدو أن أسرحدون علم بسرعة بالأحداث التي حصلت في نينوى ، إذ يصف في نقوش كتابية – صيغت فيما بعد – كيف أنه سار بحملة سريعة باتجاه نينوى ، ترافقه القوات المرتبطة به، وتسانده الآلهة . لقد فر قسم من القوات المتمردة عليه ، وكان من ضمنه أخوه غير الشقيق أُرْدو مولّيسو ، وقسم آخر لاحظ تصميم قوات أسرحدون على الإبادة، فلجأ إلى المكلّف بحماية العرش الملكي. وتوقّف أسرحدون أول الأمر عدة أيام في نينوى، ثم عاد إلى آشور لاعتلاء عرش الحكم في بلاد آشور رسمياً .

وينعكس عدم الاستقرار السياسي في هذه المرحلة في مجموعة من نصوص العرافة والتكهن بالغيب تؤكد فيها الإلهة عشتار لأسرحدون أنه سيحظى بحمايتها .

انصرف أسرحدون في الشهور الأولى من حكمه إلى إعادة تنظيم الأوضاع السياسية الداخلية؛ حيث أمر بإعدام عدد كبير من أنصار أخوته؛ ومن بينهم مسؤولون كبار في البلاط الآشوري ، ويبدو أن بعضاً منهم تمكّن من إخفاء مشاركته في الاجتماع الذي تم فيه الاتفاق على المؤامرة . يتضح ذلك من رسالة موجهة إلى أسرحدون ، تذكر أن اثنين من المقرّبين الموثوقين لديه كانا مشتركين في المؤامرة أيضاً .

كان أسرحدون يسعى طوال عهده إلى توسيع إطار المملكة الآشورية. وقد نجح فعلاً في فرض نفوذه حتى البحر الأبيض المتوسط، حيث أرسل حكام المدن الفينيقية في الساحل، وملوك قبرص، الجزية السنوية له، كما تم له احتلال أجزاء من مصر .

أما في بلاد الأناضول فقد تطورت أوضاع الكيمريين الذين ألحقوا قبل ذلك ببضع سنوات هزيمة ساحقة بالأورارتيين، وباتوا يشكلون خطراً جديداً على بلاد آشور .

وفي الجنوب كانت بلاد بابل جزءاً من المملكة الآشورية ، وتشكل مشكلة سياسية داخلية . ولم تنفع فيها أساليب الدمج والإدارة ؛ كما في المناطق المحتلة الأخرى ، وقامت فيها بين حين وآخر تمردات محلية ، دفعت أسرحدون إلى تسيير حملات عسكرية إليها .

و- إعادة بناء بابل :

على الرغم مما سبق ذكره ؛ بدأ أسرحدون – وهو في العقد السابع من عمره – بإعادة مدينة بابل المدمرة . وفي الواقع شكلت الأسلاب التي نهبها من حملته إلى مصر الأساس الاقتصادي لذلك ، وكذلك للقيام بأعمال ترميم ومشاريع بناء في مدن كبيرة أخرى في جنوبي بلاد الرافدين .

نعرف أخباراً عن سير تلك الأعمال في بابل من خلال نقوش كتابية خاصة بأسرحدون ، ومن رسائل موجهة إليه ، تذكر الإنجازات التي تحققت ، وكذلك العقبات واللوازم خلال مراحل البناء . وتقدم هذه الرسائل بأسلوبها المباشر انطباعاً حياً عن سير العمل والبيروقراطية المتزمتة ، وكذلك عن حرص الأفراد والمؤسسات المشاركة في التنفيذ .

نقرأ في رسالة تتحدث عن العمل في بناء أساسات المعبد الجديد ، ما يأتي :

... إنّ ديدي المعماري المكلّف بالأعمال في معبد إسانجيلا موجود . قلتُ له: " تعال معي نكشف معاً عن الأساسات" لكنه قال : "لا يمكنني بأية حال أن أبدأ دون توجيه من الملك . لقد أرسلت رسالة إلى القصر الملكي بخصوص الأعمال في إسانجيلا (....) ، ولكني لم استلم أمراً بذلك حتى الآن " .

لذلك لابدّ من إرسال أمر إليه، حتى يشاركني العمل. بدونه لا أستطيع الكشف عن الأساسات.

على الرغم من ذلك ، ومع وجود عقبات أخرى أُمكن أخيراً إنهاء بناء منطقة المعبد بمبانيها المختلفة. وتم إعلام الملك بعد ذلك بواجبه في رسالة أخرى، جاء فيها:

إلى الملك ، سيدي ، هكذا يقول خادمك أُردو أخيشو: (ثم ترد سلسلة طويلة من الأدعية للملك، ويقول بعدها:)

لقد تم إعادة بناء إسانجيلا القسم العلوي من المعبد ، الذي يقيم فيه الإله بل والإلهة بليتا ؛ مع غرف العبادة فيه ، وحجرة الإلهة تَشْميتُ ، والقسم السفلي من المعبد ؛ مع غرف العبادة فيه .

(... تهشيم حاد في الرقيم...)، **أنابيب المجاري مُدِّدت، قمنا بتبليط الأرضيات بالقار، وعمّرنا جدران المعابد كلها بالآجر المشوي. نحن الآن بانتظار إقامة شعائر الافتتاح ، ليت الملك ، سيدي ، يعلم بهذا .**

ز- تنظيم وراثة العرش :

لقد اتخذ أسرحدون سنة 672 ق.م قراراً موفّقاً ، حلّ بموجبه المشكلة البابلية ، فقد عيّن ابنه الأكبر شمش شومُ أوكين أميراً ، وفي المستقبل ملكاً ، على بابل . كما عيّن أخاه الأصغر آشور بانيبال أميراً ، وفي المستقبل ملكاً ، على بلاد آشور .

ليس من المؤكد أن أسرحدون خطط بذلك لتطبيق هذا النهج في وراثة العرش بشكل مستمر في المستقبل. كما لا يمكن تأكيد أن أسرحدون احتاط بذلك للعواقب المستقبلية البعيدة المحتملة لهذا الحل ؛ انطلاقاً من تجاربه الخاصة بالطبع . ولكنه أكّد

على هذا الإجراء التنظيمي لوراثة العرش بأن دعا مختلف التنظيمات السياسية إلى أداء القَسَم والتصديق عليه . كما حصل في حالات سابقة .

تقدم المصادر معلومات مفصلة لنا عن هذا الحدث ، فقد كشف عن عدة نسخ من قرار تنظيم وراثة العرش هذا ، كما توجد مصادر أخرى تصفه ، ومنها مجموعة من الرسائل التي تتعرض لذلك .

أقام الملك سنة 672 ق.م شعائر احتفالية مهيبة ، يرد وصفها في أحد النقوش المتأخرة زمنياً ، على لسان آشور بانيبال ، إذ يقول :

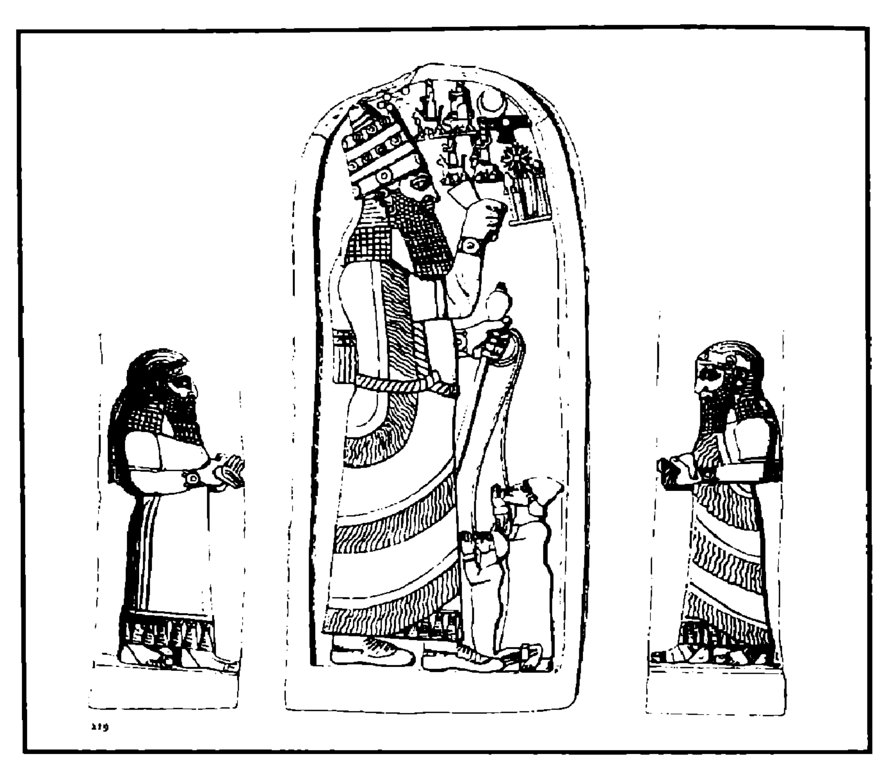
جعل سكان بلاد آشور، صغاراً وكباراً، من ساحل البحر حتى ساحل البحر، يلتقون ويؤدون القَسَم أمام الآلهة. وعقد اتفاقاً على حماية إمارتي، ثم في المستقبل ملكيتي ، في بلاد آشور .

ويرد في مقدمة الاتفاق ذكر أطراف الاتفاق، ثم عرضُ أسماء الآلهة الشهود عليه، فالقَسَم الذي أدّته آلهة بلاد آشور وبلاد بابل والبلدان جميعها معاً ، وكذلك آلهة السماء والأرض .

يلي ذلك ستة وثلاثون مقطعاً تحدد فيها بدقة الأمور التي تم الاتفاق عليها ، بهدف حماية وريث العرش ، ويأتي في مقدمتها ما يلي:

هذا هو الاتفاق الذي عقده أسرحدّون ملك بلاد آشور معك ، بحضور آلهة السماء والأرض الكبرى ، حول آشور بانيبال ولي العهد في دار الخلافة ابن أسرحدون ملك بلاد آشور ، سيدك الذي حدده وعيّنه في منصب الإمارة .

إذا ما مضى أسرحدون ملك بلاد آشور إلى قَدَره ، تدع آشور بانيبال ولي العهد في دار الخلافة يأخذ مكانه على العرش الملكي ، ويصير يمارس الملكية والسيادة عليك . وأنت (يا شمش شوم أوكين) يجب عليك أن تحميه في المدن والأرياف ، وأن تفديه بروحك . يجب عليك أن تكلّمه بقلب صادق ، تقدم له النصيحة التي يوثق بها (....) . يجب عليك ألا تخلعه ، ولا تسعى لتعيين أحد أخوته، الأكبر منه أو الأصغر ، بدلاً منه في مكانه على عرش بلاد آشور .



الشكل (4) مسلّة من شمأل ، من سنة 671 ق.م . أسرحدون يمسك بحبل يربط خصمين مهزومين ، أمام رأسه رمـــوز لآلهـــة مختلفة . على الجانبين ابناه الأميران

ثم يلي ذلك عرض مفصل عن الأشكال المختلفة للمعارضة المحتملة ضد قواعـــد تنظيم وراثة العرش ، وضد الوريث وأسرته ... إلخ ، وكذلك حديث عن واجبات مؤدّي القَسَم في تلك الحالات المذكورة .

ينتهي النص بقواعد تضمن المحافظة على القَسَم، ثم سلسلة طويلة من اللعنـــات الموجهة إلى من سيخرق الاتفاق .

ح- عُلَماء الملك :

وصلنا من عهد الملك أسرحدون عدد ضخم من المراسلات التي تمت بين الملك ومستشاريه ، ولذلك نمتلك كمية كبيرة من المعلومات المفصلة عن هذا الحـــاكم ودائرة مستشاريه .

كان هناك – إلى جانب القادة العسكريين – علماء مثقفون مختلفون يـؤدون المشورة والنصح للملك، ويحمونه . ويبدو أن المجموعة الأساسية منهم كانت تعمل في البلاط الملكي في نينوى ، كما كان آخرون منهم يقيمون ضمن مجموعـات في جميع المدن الكبرى ضمن المملكة الآشورية .

اعتاد الملك أن يرسل بعض أولئك العلماء في سفارات خاصة ، وتبادل معهـم الرسائل . وتنعكس في رسائل مستشاريه إليه صورة شاملة عن طبيعة حياته اليومية واهتماماته التي كان ينشغل بها . ومن خلالها نعرف أخباراً ولمحات عن المباحثـات الدبلوماسية الصعبة ، وعن مرض الإسهال وآلام الأسنان لدى الأمير الصغير، وعن حالات سرقة صغيرة وكبيرة في المعابد ، وعن مشكلات قانونية ، وعن أشـكال التملّق ، وحماية الذات ، وعن علامات شؤم كانت تثير المخاوف ، وكذلك عـن حالات مرض الملك التي يبدو أنها كانت تتكرر بين فترة وأخرى .

إن هذه النصوص متنوعة الموضوعات بدرجة كبيرة مذهلة ، يصعب الإحاطة بها هنا ، ونكتفي بنموذج واحد منها، هو عبارة عن رسالة من بَلاسي ونبو أخي إريبا اثنين من الثقاة المقربين من أسرحدون، ومربيّي الأمير الصغير آشور بانيبال، كتباها إلى الملك للاطمئنان على صحته . وبعد تحيات الاحترام والتقدير . يقولان :

نرجو أن يعذرنا الملك، سيدنا. ألا يكفي يوم واحد يصوم فيه الملك، ويكون واهن العزم؟ كم سيصوم ؟ ها هو الآن اليوم الثالث الذي لم يأكل فيه الملك طعاماً . الملك رجـل مسكين ! كلما حلّ مطلع الشهر ، وبدا القمر جليّاً ، نأمل أن يقول ملكنا : لا أريد أن أصوم ، ها هو مرة أخرى مطلع الشهر ، سآكل الخبز وأشرب الخمرة .

تفيد النصائح والمعلومات هذه بأن تأثير العلماء على الملك كان كبيراً ، وكـان أسرحدون يتصل دائماً بالرجال الحكماء للاستفسار عن دلالات وعلامات يلاحظها الناس ، وتبدو أنها تنذر بالشر أو أنها كانت فعلاً كذلك . وبسببها تم إلغاء مواعيد ولقاءات وولائم واجتماعات وأسفار مقررة لوقوعها في أيام غير مناسبة، أو تأجيلها.

وكان كسوف الشمس يعدّ أبرز علامات الشر. فقد عُدّت الشمس أو بالأحرى إله الشمس تجسيداً للقانون ، والحامي القوي للملك ، وراعي النظام العادل. وتمت المساواة بين الملك وإله الشمس— ليس في بلاد آشور وحدها- من حيث وظيفتهما

كقاضيين راعيين للنظام، ومدبّرين لشؤون الكون. ولذلك نجد أن الملوك الآشوريين تلقبوا غالباً بلقب " شمس الشعوب كلها " . ولهذا فإن كسوف الشمس كان يعني غياب القانون والنظام، وحلول الفوضى، بل إن اختفاء هذا الكوكب اليومي كانت منذ القديم نذيراً بموت أحد الحكام . ولكن المرء وجد حلاً لتفادي هذا الشر . فإذا ما بات كسوف الشمس متوقعاً، اختاروا من عامة الناس ملكاً بديلاً ألبسوه الثياب الملكية، وقلّدوه الرموز الملكية ، وأجلسوه على العرش في مكان الحاكم الحقيقي . أما الملك فيختفي لمدة مئة يوم ، ويسمي نفسه خلال ذلك بـ " فلاح " ويعيش حياة آمنة ، حتى يزول الخطر عنه . ليس واضحاً مصير الملك البديل بعد انتهاء كسوف الشمس ، ربما كان يُقتل .

ولكن لم تكن جميع حوادث كسوف الشمس تشكل خطراً على الملك الآشوري، بل لابد من توافر ظروف وشروط معقدة ، يفهم دلالاتها مختصون ، ويستنتجون منها تفسيرهم وتقديراتهم .

وهكذا يبدو جلياً مدى قوة العلماء إزاء حاكم يسهل التحكّم به . وقد كان بإمكانهم إعطاء إشارات محددة تكفي للتأثير على القرارات السياسية ، من حيث عرقلة صدورها أو بالعكس تسهيل ذلك .

ط- آشور بانيبال :

تولى آشور بانيبال عرش الحكم ، بعد وفاة أبيه أسرحدّون في تشرين الثاني من سنة 669 ق.م . وكان ذلك فرصة لتجديد واجب قَسَم الولاء العام الذي فُرض على أفراد قبيلة الملك – ولاسيما على أخيه " المساوي له في المكانة " شمش شوم أوكين، وكذلك على أخ آخر كان يدعى شمش ميتُ أُبَلّط – وجميع كبار الموظفين وسكان بلاد آشور .

لسنا متأكدين من أن مثل هذا الاتفاق المعزّز بالقَسَم لدى ارتقاء العرش لم يكن أمراً مألوفاً ، ولا تتوافر لدينا معلومات عن حالات مماثلة حصلت خلال القرون السابقة . ولكنّ غير المألوف كان أن هذا الاتفاق تم بتدبير من جَدّة آشور بانيبال المدعوة نَقيّا زَكوتو ، التي سُميت طرفاً في الاتفاق .

وكما ميّز أسرحدّون نفسه من قبل، كذلك فعل آشور بانيبال من خلال امتلاك درجة عالية من الثقافة وتحصيل معارف واسعة في المجالات المختلفة. وتفيدنا نقوشه الكتابية الخاصة بمعلومات مفصلة عن بيئته التي تربّى فيها ، وعن تكوينه الثقافي .

لقد مدح نفسه مراراً متباهياً بعِلمه الواسع وحكمته السديدة . ومما يدل على أن ذلك لم يكن مجرد دعاية سياسية ؛ وجودُ مراسلات له مع مثقفين متعلمين في بلادي آشور وبابل ، ناقش فيها معهم موضوعات معقدة .

وقاد اهتمامه الزائد بالتراث الكتابي في بلاد الرافدين إلى جمع مجموعة ضخمة من الرُّقُم الطينية وتصنيفها ، ضمن قصره في نينوى ، وهي المجموعة المعروفة بـ " مكتبة آشور بانيبال " التي مازالت حتى اليوم تفيدنا في دراسة ذلك التراث الغني وفهمه. ومن المعتقد أن قسماً من النصوص المدوّنة على تلك الرُّقم استنسخها الملك بيده عن نسخ أقدم .

تابع آشور بانيبال بعد ارتقاء عرش الحكم سياسة أبيه الذكيّة الهادئة. وحاول أول الأمر تهدئة الوضع في بابل، لذلك أبدى الاحترام للآلهة البابلية بأن قام أخيراً بإعادة تماثيل الآلهة - ولاسيما تمثال الإله مردوك - التي تم نقلها إلى بلاد آشور خلال حكم سنحريب. وكان ما زال يحكم هناك أخوه شمش شوم أوكين أميراً معيناً على الجزء البابلي من المملكة. وفي سنة 668 ق.م تم تتويجه رسمياً ملكاً على بلاد آشور وأكّد.

كما اهتم آشور بانيبال بأخوته الآخرين ، فعيّن أحدهم كاهناً أعلى لإله القمر في مدينة حَرّان ، هذه المدينة الواقعة في أقصى شمالي المملكة، والتي فُرض عليها فيما بعد أن تنال مصيراً سيئاً عند انهيار المملكة الآشورية .

ي- نجاح سياسة آشور بانيبال الخارجية :

بعد أن أنهى آشور بانيبال ، بهذا الشكل ، الخلافات الأسرية الداخلية ، وضَمِنَ سلطته على الجزء البابلي من المملكة شرع في ممارسة سياسة الاحتلال التوسعية . فقد تابع عمليات الاحتلال العسكري في مصر، التي كانت قد بدأت في عهد أبيه . وقمع عدة تمردات ضد حكمه قامت في مقاطعات تابعة لآشور ، وفرض من جديد معاهدات على ملوك ساحل بلاد الشام وقبرص .

في سنة 664 ق.م سقطت أخيراً العاصمة المصرية طيبة بيد الآشوريين ، وعقد آشور بانيبال معاهدة مع الفرعون الحاكم نيخو الأول وعدد من قادة الجيش الكبار في مصر . وقد اختلف هؤلاء فيما بينهم وباتوا يترقبون بعضهم بعضاً ، بحيث لم يتمكن ابن الفرعون المدعو بسامتيخ الأول من استلام الحكم بعد وفاة أبيه ، دون دعم الحامية الآشورية هناك .

وفي الشرق سعى آشور بانيبال إلى استغلال الخصومات الداخلية ضمن الأسرة الحاكمة في عيلام ، ومنح حق اللجوء لعدد كبير من أتباع الفريق المهزوم بينها آنذاك . وبعد أن استلم حكم عيلام الملك الجديد تيومان طالب بتسليمهم ، وأدى ذلك إلى معركة ضارية معه عند ضفاف نهر أولاي، انتهت بنصر آشوري. وسارت القوات الآشورية إلى العاصمة العيلامية سوزا ، ودمرتها .

بلغ الانتصار الساحق على تيومان ذروته بقطع أعناق الأسرى ، وقد وردت تفاصيله في حوليات آشور بانيبال وفي عدد من المشاهد التصويرية المنحوتة التي عرضت في قصور نينوى . وبذلك صار حكم عيلام بيد الطرف الموالي المدعوم من قبل الآشوريين في الأسرة الملكية العيلامية . وكما كانت الحال في مصر لم يتول ملك آشور السلطة السياسية فيها بشكل مباشر، بل كلف بها حاكماً عيلامياً موالياً له ، اكتسب شرعيته من انتمائه إلى السلالة الحاكمة أصلاً .

أما في الشمال والشمال الشرقي فقد بدأ يزداد حجم خطر الكيمريين الذين كانوا بدورهم مهددين بالسكيثيين المقيمين خلفهم. كما طلبت شعوب صغيرة مختلفة مقيمة في بلاد الأناضول الحماية من الآشوريين، ومنهم الملك الليدي جيجاس الذي أرسل رسولاً إلى نينوى يطلب المساعدة .

لقد اضحت هناك الآن إمبراطورية آشورية تسطير على بلاد الهلال الخصيب كلها، وتحتل أجزاء من مصر. وبات الملك الآشوري "ملك الجهات الأربع"، والقوة السياسية العظمى في الشرق الأدنى القديم حقاً . ولكن هذا الحكم في " الجهات الأربع " كان يعاني من مشكلات في بنيته ؛ إذ صار نطاق " بلاد آشور " الجغرافي واسعاً ممتداً بشكل تصعب السيطرة عليه . واجتمعت الأخطار المحدقة بالحدود الخارجية ، ومساعي شعوب المناطق المحتلة في الأطراف لزعزعة السيادة الآشورية ،

لتوصل الإمكانات التنظيمية في هذه المملكة العظمى إلى حدودها الدنيا . ويمكن القول إن انهيار الإمبراطورية بدأ وهي في أوج قوتها ، وذلك بسبب وصول بلاد آشور إلى أقصى اتساع جغرافي لها ، وبسبب سياستها الاستعمارية التي تجاوزت حدود إمكاناتها . وبدأت تبرز هزائم جزئية تمهّد لذلك .

إن سياسة الحكم التي كانت متّبعة حتى الآن ؛ وذلك بتقييد حركة الشعوب المحتلة بوساطة فرض معاهدات عليها ، أو بالوجود العسكري والإدارة الآشورية ، أو بدعم الموالين للحكم الآشوري ، لم تعد مجدية بشكل كاف ، بسبب الاتساع الذي بلغته الإمبراطورية . كما إن التنوع الإثني والحضاري ضمن الإمبراطورية ، والأساليب المختلفة للاضطهاد ، وغياب فكر سياسي يعمل من أجل التثاقف والدمج ، أعاق ظهور "هوّية" خاصة حقيقية للإمبراطورية .

ويضاف إلى ذلك أن الاقتصاد الآشوري القائم على تواتر الجزية الدائمة وأسلاب الحروب بات منهكاً ضعيفاً نتيجة تمويل الحملات العسكرية المتجددة المستمرة. ولذلك فإن الوضع الآشوري كان صعباً قبيل أواسط القرن السابع ق.م، بالمقارنة مع وضع الجزء البابلي من المملكة الذي حافظ طوال الفترة السابقة على استقراره .

ك- حرب الأخوة :

إن الاحتفاظ بمنصب الملكية – بشكل رمزي – في بابل كان – بالدرجة الأولى – تعبيراً عن القبول بالواقع لدى سكان جنوبي بلاد الرافدين، وكذلك في بلاد آشور. كما كان تسويةً أوجدها الملوك الآشوريون بدلاً من الإخضاع التام لبلاد بابل ، هذه البلاد التي كانت من قبل أقدم مهد للبشرية، و لم تكن في أي زمن مضى خصماً عادياً ، نظراً لوجود المدن الدينية القديمة الكبرى ومعابد كبار آلهة بلاد الرافدين فيها، وفيها حكم ملوك سومر وأكّد، ونشأت معظم أساطير بلاد الرافدين وملاحمها وحكاياتها البطولية ، ووجدت مراكز الثقافة خلال قرون عديدة .

ويبدو موضع تساؤل فيما إذا كانت بلاد آشور أرادت آنذاك بعملية الاحتفاظ بمملكة بابلية مستقلة كسبَ مودّة سكان الجنوب أيضاً . ولكن المجموعات المختلفة

المستفيدة من الأمر في جنوبي بلاد الرافدين كانت تدرك على الدوام دلالة الحماية الآشورية ، ومعنى وجود آشوري على عرش بابل .

قام شمش شوم أوكين بصفته ملكاً على بابل بالواجبات الدينية المفروضة عليه، وبذلك استطاع – على الأقل شكلياً – تهدئة أفراد المؤسسة الدينية . أما القرارات السياسية المهمة فكان يتخذها ملك آشور، وكان ذلك وحده كافياً لإثارة عـــدم الرضا في بابل. واتضح أخيراً أن ما نص عليه اتفاق الولاء المشفوع بالقسم، من أن الأخوين شمش شوم أوكين وآشور بانيبال سيتمتعان بالمكانة ذاتهـــا، لم يكـــن في حقيقته مصيباً .

بعد المحافظة على الحكم المزدوج ست عشرة سنة ، منع شمش شوم أوكـــين في سنة 652 ق.م بشكل علني أخاه السيد الأعلى في بلاد آشور من دخول المزارات الدينية في بابل . وبهذه الخطوة أعلن نفسه زعيماً للقوى السياسية المعارضة لآشور ضمن بلاد بابل وخارجها ، واستغل الكره المنتشر ضد بلاد آشور ، ليس في بابل وحدها ؛ بل لدى الشعوب الخاضعة للاحتلال الآشوري أيضاً ، وبـــدأ يـــستنفر الجيش تلو الجيش ضد أخيه آشور بانيبال .

اشتعلت حرب ضارية ضد أخيه، وشاركت فيها قوات عيلامية وقوات الأمراء العرب في الجنوب. وبذلك نقضوا العهد الذي كانوا قد أقسموه لسيدهم الأعلى ، ملك آشور. ويتوقف آشور بانيبال مراراً عند هذه النقطة في نقوشـــه الكتابيـــة ، فيقول مثلاً عن ملك إحدى القبائل العربية:

كذلك، مثل عيلام، استجاب لنداءات الغدر في بلاد أكّد (يقصد بلاد بابل) ، وازدرى المعاهدة المعقودة معي، وتخلّى عنّي أنا آشور بانيبال (.....) المخلوق بيد الإله آشور .

وبعد حرب دامت أربع سنوات ، انتهت انتفاضة الجنـــوب ســـنة 648 ق.م باحتلال القوات الآشورية مدينة بابل، و لم يستلم آشور بانيبال هذه المرة أيضاً العرش البابلي بنفسه ، بل عيّن رجلاً غير معروف ، اسمه كَنْدالانو حاكماً على بابل.

وعانى بعدها أنصار أخيه في بابل وجنوبي بلاد الرافدين، وفي غيرها من الأمكنة، من الملاحقة المنظمة والعقاب ، واستثني من ذلك الذين غيروا موقفهم خلال الحرب

وانضموا – وفق اتفاق جديد – إلى جانب آشور بانيبال، مثل بعض القبائل الكَلْدية في الجنوب .

لم يكن نقض المعاهدة مع الملك الآشوري يعني – وفق وجهة النظر الآشورية – مجرد إنهاء للولاء السياسي ، بل تخلياً عن الواجبات التي أقسموا على تأديتها للآلهة التي حضرت المعاهدة وشهدت على القَسَم . وبذلك عُدّ الأمر عملاً مضاداً للنظام الإلهي للكون ، ورأى الملك الآشوري أن من واجبه – بصفته مكلفاً من الآلهة بحماية هذا النظام الكوني. كما كان يعتقد – تنفيذ طلب الآلهة بمعاقبة مسبّبي الشر.

وقد نفذ ذلك فعلاً بشدة تفوق التصور، حيث ربط أحد الملوك العرب المتمردين عليه بحبل في عنقه ، وجعله يحرس مع دُبّ وكلب إحدى بوابات السور الداخلي في مدينة نينوى ، التي حملت اسم " مدخل اختبار الكون " . كما كلّف آخرين بأعمال السخرة في مشاريع بناء القصور الملكية ، وتم بأساليب فظيعة قتل آخرين منهم .

8 نهاية الإمبراطورية

آ- خلفاء آشور بانيبال :

لا نعرف إلا القليل من الأخبار عن السنوات الأخيرة من عهد آشور بانيبال ، ولا يمكن استخلاص حقائق مؤكدة منها .

كما تشكل – بشكل خاص – الفترة الواقعة بين 630-616 ق.م مشكلة كبرى أمام المؤرّخين، لأننا نفتقر إلى مصادر كتابية عنها . ويفترض أنه حصلت آنذاك تطورات شكلت – على الأقل – بعض أسباب الضعف السياسي الداخلي الذي حل في بلاد آشور بشكل مفاجئ نسبياً ، وبتأثيره فقدت آشور سيادتها على بابل.

لا نعرف شيئاً إطلاقاً عن السنوات الأخيرة من عهد آشور بانيبال ، ولا عن قواعد وراثة العرش في آشور وبابل ، التي كان قد وضعها من قبل. ربما تولى عرش الحكم الآشوري ابنه آشور إتل إيلاني في سنة 630/631 ق.م، ومما قد يدلل على صحة ذلك وجود إشارات إلى حصول عفو عام عن الضرائب في السنة التالية ، وهو إجراء كان يحصل عادة في بداية كل حكم جديد .

إن المصادر القليلة المتوافرة غامضة ، ولكن يبدو أن الأوضاع كانت مضطربة آنذاك ، حيث نجد أن موظفاً آشورياً كبيراً ، أو رئيس المخصيين المدعو سين شومو ليشر ، كان يدّعي حقّ الحكم أيضاً .

في سنة 627 ق.م ارتقى عرش الحكم في بابل ابن آخر لآشور بانيبال ، اسمه سين شر إِشْكُن . وعلى الرغم من أنه عقد أول الأمر اتفاقاً على السيادة مع مدن بلاد بابل ، ولكنه هذا الأسلوب أثبت فشله مرة أخرى .

ثم ظهر من بين قبائل الجنوب الكلدي نبو بولصّر الذي توّج نفسه ملكاً ، وبدأ منذ 626 ق.م بهجمات عسكرية متكررة على بابل ، وبذلك حصلت سلسلة من المواجهات العسكرية بين مختلف المجموعات المتناحرة على الحكم .

في سنة 623 ق.م توفي آشور إتل إيلاني ، فتوّج أخوه سين شر إشْكُن نفسه ملكاً على آشور ، ولكنه فقد بعد زمن قصير (620/621 ق.م) الجزء الجنوبي من المملكة الآشورية – البابلية بشكل نهائي، إذ صار تحت حكم نبو بولصر مؤسس حكم السلالة الكَلْدية في بابل بعد ذلك .

ب- نهاية الدولة الآشورية :

بناءً على نص أكدي يعرض الأحداث التاريخية المتعاقبة ؛ فإن نبو بولصر بدأ مباشرة بعد تنصيبه ملكاً على بابل بقيادة حملات عسكرية سنوية باتجاه الشمال . لقد نفّذ غزوات متتالية في مناطق وادي الفرات شمالي بابل ، الخاضعة للسيادة الآشورية ، كما سار عكس مجرى دجلة نحو المناطق الآشورية المركزية . وخاض مواجهات مع الآشوريين انتهت بالنصر أحياناً وبالهزيمة أحياناً. ويبدو بشكل عام أن الآشوريين – رغم دفاعهم المستميت – صاروا ينسحبون ببطء ، و لم يتمكنوا من الصمود أمام الضغط البابلي العسكري المتزايد .

ثم تلقّت القوات البابلية دعم الميديين القادمين من مناطق زاكروس لمهاجمة الآشوريين أيضاً . وبذل الملك الآشوري محاولات حثيثة في توحيد صفوف قواته لردّ المهاجمين ، ولكن دون جدوى ، حتى سقطت مدينة آشور في 614 ق.م ، بأيدي المتحالفين البابليين والميديين، ثم احتلوا نينوى في تموز 612 ق.م بعد حصار دام ثلاثة شهور . وقد كشفت التنقيبات الأثرية فيها ، في مواضع عدة ، عن عظام المدافعين عنها ، ويرجح أن الملك سين شر إشكن لقي حتفه خلال المعارك فيها . وتمكن ولي العرش وقسم من أفراد البلاط الملكي ، والقوات الباقية من الانسحاب بعيداً نحو مدينة حرّان في الغرب .

تقع حرّان قرب مجرى الفرات ، على طريق مهم يربط بين سورية وشمالي بلاد الرافدين وبلاد الأناضول . كان شمشي أدد الأول – من قبل – قد احتل المنطقة المحيطة بحران ، لفرض سيطرته على هذا المركز المهم اقتصادياً واستراتيجياً ودينياً ، وكانت حران مركزاً رئيساً لعبادة إله القمر سين الذي حظي بتقديس كبير ليس في بلاد الرافدين فحسب ، بل في مناطق الشرق القديم كلها .

وكانت حران قد خضعت فيما بعد لسيادة الحثيين والميتانيين والآشوريين ، ثم نشأت في أواخر الألف الثاني ق.م في حران ومحيطها مملكة آرامية . وخلال حكم شلمنصر الثالث تحولت المنطقة تلك كلها إلى مقاطعة آشورية تتبع لقائد الجيش العام.

أظهر ملوك آشور دائماً اهتمامهم بالمدينة من خلال القيام بأعمال بناء وترميم في منطقة معبد إله القمر. وأمر أسرحدون بإقامة تماثيل له ولوليي العهد فيها ، أما آشور بانيبال فقد عيّن أخاً أصغر له ليكون كاهن إله القمر في حران. ويعتقد أن أمّ الملك البابلي نبونئيد الذي حكم فيما بعد ربما كانت إحدى بنات ذلك الكاهن.

وبشكل عام يتضح أن علاقات الأسرة الملكية الحاكمة كانت جيدة مع هذه المدينة ، ولذلك أضحت – بعد سقوط المناطق الآشورية المركزية بيد الأعداء – مقراً أخيراً للحكام الآشوريين .

تم في السنة الرابعة عشرة من عهد نبو بولصر تسمية ملك آشوري جديد هناك، بل يرجح تنصيبه رسمياً ، وهو آشور أُبلّط (الثاني) أي " الإله آشور يُحيي " . وقد يكون اسمه هذا مختاراً بشكل هادف ليعبّر عن برنامج سياسي ، كما إن الاسم يذكّر باسم أحد الملوك من أسلافه ، وهو آشور أُبلّط (الأول) الذي حكم قبل ثمانية قرون ، وكان المؤسس الأول للإمبراطورية الآشورية واسعة النطاق .

ومن سخرية الأقدار أن آشور أُبلّط (الثاني) كان آخر الحكام في المملكة الآشورية . لا نعرف بوضوح ودقة مكانته السياسية ، كما لا نعرف مدى التقيد بالعرف الذي كان يقضي بتعيين الملك الآشوري الجديد في معبد الإله آشور ، ضمن شعائر مرسومة تقام في مدينة آشور . وهل شهدت مدينة حران مظاهر احتفالية مماثلة ، أم تم تأجيل الأمر إلى زمن لاحق يكون من الممكن فيه إقامتها في مدينة آشور . ونفتقر – حتى الآن – إلى مصادر يتضح فيها ، فيما إذا كان قد حمل اللقب الملكي فعلاً ، ومن ثم مارس السيادة بشكل حقيقي رسمي .

بعد زمن قصير ، في سنة 610 ق.م ، وصلت قوات التحالف البابلي – الميدي إلى حرّان ، واستطاعت احتلال المدينة أخيراً . يبدو أن آشور أبلّط (الثاني) تمكن من الفرار ، مع قسم من قواته ، ولقي الحماية والدعم من قوات مصرية ، إذ كان

حكام السلالة السادسة والعشرين في مصر قد نشروا من جديد الوجود المصري في النطاق السوري — الفلسطيني ، منذ أواسط القرن السابع ق.م .

قد يكون الدافع الذي دفع الفرعون نيخو الثاني إلى السير بحملة سريعة إلى منــاطق الفرات ودعم الآشوريين، هو التأكيد على العلاقات القديمة بين الآشوريين والــبلاط الفرعوني في مصر، أو أن المصالح المصرية في المناطق الساحلية المتوسطية كانت تقتضي وضع حد للتهديد الذي سيشكله تغلغل قوات التحالف البابلي — الميدي.

لقد وصل الدعم المصري متأخراً ، ولكن قوات التحالف المصري — الآشوري تمكنت من استعادة حران في سنة 609 ق.م ، ولقي آشور أُبلّط (الثاني) حتفــه خلال ذلك . ولكن هذا الانتصار المتأخر لم يخلّف نتائج ذات شأن .

إن موت الملك الآشوري الأخير لا يمثّل نهاية حكم سلالة تولى أفرادها منصب الملكية في آشور منذ قرون فحسب ؛ بل نهاية آشور كدولة مستقلة وكيان سياسي قائم في رقعة جغرافية واسعة .

ثم سيطر الميديون على الحكم في إيران وأرمينيا، وفي أجزاء من بلاد الأناضول، وشمالي بلاد الرافدين، أما الملك البابلي فحكم في جنوبي بلاد الرافدين، وفي سورية وفلسطين.

لقد تأثر الناس تأثراً عميقاً بنهاية المملكة الآشورية، وبدمار مراكز القوة آنذاك، مثل : آشور ، دور شرّكين ، كلخو ، نينوى ، وأخيراً حران . فقد أعلــن الــنبي ناحوم (في العهد القديم) في مراجعة تاريخية أن الحدث كان عقاباً إلهياً توجّــب على نينوى أن تتحملّه .

ومن التعبيرات المؤثرة ، وبشكل أكثر من كلمات الأنبياء التوراتيين اللاهبة ، ما ورد في مقطع شعري صغير لفوكيليدس الملطي نظمه في القرن السادس ق.م، يقول فيه: إن مدينة قائمة على مرتفع، منظّمة، صغيرة باتت أفضل من نينوى السخيفة .

ج- بعد انهيار الدولة الاشورية :

لم تعد هناك دولة آشورية مستقلة بذاك الاتساع الجغرافي الواسع؛ أي أنها صــارت "زائلة"، ولكننا اليوم نعلم أن كثيراً من أساليبها التنظيمية وتقاليدها ظلت متّبعة.

لم يبق لأي من العواصم الآشورية القديمة ما يدعو إلى الافتخار بـــه ، أو مـــا يستحق التأثير ؛ وذلك باستثناء مدينة حرّان التي عادت تحت حكم الملوك الكَلْديين لتلعب دوراً مهماً . وتظهر المكتشفات الأثرية أن البيوت التي نجت مـــن تـــدمير المحتلين استمر استخدامها أو وُظّفت للسكن من جديد بدرجات متفاوتة .

أما في المقاطعات فقد كان الوضع – كما يبدو – مختلفاً ؛ فنجد – على سبيل المثال – أن مدينة دور كتليمّو على الخابور ، التي أنشئت في العـــصر الآشـــوري الوسيط لتكون مقر حكم المقاطعة ، تجاوزت أزمة انهيار المركز السياسي دون ضرر مؤثر إلى حد كبير . فقد خُرّبت بعض بيوت الوجهاء الكبيرة ، ونُهبت ، ولكن – بشكل عام – استمرت مظاهر الحياة الرسمية والعامة ، كما تدلل النصوص الكتابية المكتشفة فيها . ظلت الأسرة القديمة العريقة في المدينة تمارس أعمالها التجارية، كما ظلت هناك إدارة محلية تدير شؤون السكان ، ولكن لم تعد هناك وحدة وتـــرابط محلي أو واسع النطاق بين المقاطعات . ويمكن ملاحظة ظهور أساليب تأريخ محلية بعد انهيار الدولة في عدد من مدن المملكة السابقة ، و لم تعد هناك صـــيغة تـــأريخ سنوية موحدة صادرة عن المركز، لتستخدم بشكل موحد في مناطق المملكة كلها . وظل الوضع كذلك عدة سنوات ، حتى أعاد الحكام الجدد تطبيقها ، ضمن كـــثير من أساليب الإدارة والحكم الآشورية التي تبنّوها . ويظهر ذلك بوضوح في صـــيغ الاتفاقات التي عقدت بخصوص ملكية الأراضي ، في السنوات الأخيرة من القـــرن السابع ق.م . وهي توافق صيغ الاتفاقات الآشورية ومدوّنة باللهجة الآشـــورية ؛ أي أنها استمرت تحافظ على التقاليد المحلية ، باستثناء مظهر واحد ، هو اســـتبدال أسلوب التأريخ الآشوري بالأسلوب البابلي في تأريخ الأحداث ، حيث صـــارت النصوص تؤرّخ حسب سنوات حكم الملك البابلي الحاكم نبوخذ نصّر الثاني .

ويبدو أن الكتّاب المرتبطين بالإدارة الحكومية ، الذين كانوا مكلفـــين رسميـــاً بتدوين الاتفاقات على الرّقم ، حافظوا على وظائفهم لديها . ولكن بعد ســـنوات اختفت أيضاً هذه المظاهر التي كانت تمثّل بقايا التأثيرات الإداريـــة الآشـــورية ، وصارت لغة النصوص الكتابية الإدارية وصيغها الأسلوبية بابلية تماماً .

وقد استفاد الملوك البابليون والميديون والفرس ، بدرجة كبيرة ، من الأســـاليب التنظيمية الموحدة التي تم تطبيقها في مناطق شمالي بلاد الرافـــدين تحـــت الـــسيادة الآشورية .

ثمة صفات من نمط " القوة، السيادة ، الأُبّهة ، القسوة " تشكّل عنوانات ترتبط باسم الآشوريين منذ العصور التاريخية القديمة . وهذا التصوّر عنهم ليس حـــصيلة الدعاية المعادية وحدها ، بل إن نصوصهم المدوّنة على الأنصاب أو الرّقم تتحدث بلغة واضحة عن "الخوف والرعب" الذي بثّه الآشوريون في قلوب الشعوب المعاصرة لهم. وقد كان نشر الخوف والرعب لديهم جزءاً من سياسة الاحتلال والإخضاع .

إن من يتولّ كتابة عرض عن تاريخ الآشوريين وحضارتهم، يجد مشقّة في تفادي هذا الحكم المسبق، وذلك بسبب غلبة التعبير عن مظاهر السيادة والملكية في المصادر الكتابية، ولعله من المبرر - إذا ما تذكرنا الإطار الواسع للمملكة - الحديث المتكرر عن المواجهات العسكرية ، وعمليات الاحتلال والإخضاع ، واتبـــاع سياســـات استراتيجية ، وظهور أحزاب ومؤامرات . باختصار ، لقد كان الأقوياء يهـــددون الضعفاء بإنكار حق الوجود .

إن تولي مهمة الدخول في تفصيلات الظروف والأسباب التي أدّت إلى تنـــامي دور تلك القوى العظمى ثم انهيارها ، يحتاج إلى بحث مفصل هـــادئ ، ويتطلـــب الاستفادة من معطيات النظريات الاجتماعية وعلم الاجتماع المعرفي .

آ- الأتبـاع :

على الرغم من عدم ظهور "طبقات اجتماعية" في بلاد آشور، بدلالتها الدقيقة ، على غرار التقسيمات الفئوية الهندية، على سبيل المثال، فإنها شهدت فروقاً واضحة في الأوضاع الاجتماعية لسكان بلاد آشور .

كان هناك تمايز بين سكان المدينة والريف ، من حيث أشكال المساكن ، ومن ثم ما يرتبط بها من نمط المعيشة ، فكان هناك الحضر المستقرون من ناحية ، والبدو الذين عاشوا بأشكال مختلفة ، من ناحية أخرى .

كما تظهر النصوص الكتابية القانونية والإدارية أنه كان هناك تمييز أساسي بين الأحرار من الرجال والنساء ، وغير الأحرار الذين كانوا أشخاصـــاً لا يتمتعـــون

بالاستقلالية المتوافرة لدى الأحرار ، وكانت هناك فروق فيما بينهم أنفسهم، ولعل أكثرهم حرماناً من الحرية والاستقلالية هم الذين يُسمّون في النصوص بتسمية أوردو urdu (wardu) .

تعبّر صفة أوردو عن حالات مختلفة من الارتباط والتبعية، تختلف من حيث مدتها الزمنية وظروفها. ولذلك فإن الترجمة الشائعة لها اصطلاحياً " العَبْد " ليست دقيقة. لقد كان من الممكن أن تكون هناك حالة عبودية دائمة نتيجة النسب ؛ أي الانتماء إلى أسرة تتوارث العبودية ، أو في حالات مصيرية ناشئة عن عمليات الأسر خلال الحروب ، أو أن يكون العبد جزءاً من أسلاب الحروب أو الجزية المفروضة . إضافة إلى ذلك كانت تتم المتاجرة بأشخاص مستوردين من الخارج إلى بلاد آشور ليكونوا عبيداً . وقد تؤدي إلى العبودية حالات عجز أسر عن دفع ديون مستحقة عليها أو تعجز عن الوفاء بضمانات مالية، فتقدم شخصاً أو أكثر ليخدموا كعبيد، لفترة زمنية محددة حتى تبرئ ذمتها، وإذا ما عجزت عن ذلك صاروا عبيداً دائمين يمتلكهم الدائن.

وكان من الممكن أن يمارس أولئك العبيد أعمالاً مختلفة ، ولكن بشرط موافقة مالكهم. ومن حقهم امتلاك عقارات وبيعها، وكذلك اقتناء عبيد آخرين . وكانوا يعملون في مجالات وظيفية كغيرهم ؛ فقد عملوا في الوحدات الاقتصادية الحكومية الكبرى ، وفي القصر الملكي والمعبد ، وفي مجالات عمل خاصة أو شبه خاصة .

ولذلك فإنه ليس من الواضح دائماً تحديد ما كان يميزهم عن سكان بلاد آشور الذين لم يكونوا ملاّكين ، بل قوى عاملة مرتبطة بالمؤسسات الحكومية أو المحلات الخاصة الكبرى .

ومقابل هؤلاء كان جزء من المجتمع الآشوري يتألف من المستقلين اقتصادياً ، ولهم نفوذ سياسي . وقد ضمن تعيين أفراد من هذه الطبقة في الوظائف المهمة في المؤسسات الإدارية الحكومية – على الأقل في البداية – توافر النزاهة والدقة في تنفيذ قرارات السلطة الحاكمة ، ولكن يبدو أن أفراد قبيلة الملك استأثروا بمرور الزمن بقسم كبير من المناصب في الإدارة المركزية . وبدءاً من أواخر الألف الثاني ق.م تمتع شاغلو تلك المناصب بنفوذ سياسي ، كما استغلوا مواقعهم في تكوين

ثروات وفرت لهم قوة اقتصادية أيضاً . ولذلك صار الملك يستغل توزيع تلك المناصب كأداة في تحقيق السيادة السياسية المركزية .

شكلت الأسرة (الكبيرة) المقيمة في مسكن واسع الهيكل الأساسي لجميع المجموعات والطبقات الاجتماعية ، مع خصوصيات ثانوية تتعلق بأفراد الأسرة (الرجال، النساء ، الأطفال، الأتباع "غير الأحرار" المنضوين تحت رعاية الأسرة). ووجدت ضمن نطاق الطبقات ، بشكل مستمر ، أشكال من تجمعات لأصحاب المهن والحرف المختلفة ، وكانت في الغالب ذات هيكل تنظيمي محدد .

كان سكان المملكة الآشورية — مهما كانت مكانتهم الاجتماعية — أتباعاً للملك الآشوري وخاضعين لسلطته ، وملزمين أمام السلطة الملكية بدفع الضرائب وتأدية أعمال خدمية معينة ، لفترة محددة .

ب- الملك :

كان الحاكم هو الزعيم السياسي الأعلى في الدولة. وقد أعانته مؤسسات مختلفة في إدارة الحكم خلال مراحل التاريخ الآشوري المتتالية . وكان ملوك آشور — حسب التقاليد المألوفة — حكاماً للبلاد ، كما يظهر في أحد ألقابهم الرسمية ، وقد تم تكليفهم بذلك من قبل الإله آشور . ويرد التعبير عن تلك العلاقة في صيغة تتردد ضمن الشعائر الاحتفالية المرافقة لتعيينه ، حيث يذكر :

الإله آشور ملك ، (فلان) هو حاكم آشور .

وهذه الإشارة إلى الإله آشور بوصفه مالك البلاد الحقيقي ، والسيد الأعلى للملك الآشوري تضفي الشرعية على كونه مندوب الإله على الأرض ، وتمنحه قوة غير محددة في القرار ، من الناحية الشكلية . وفي الوقت ذاته كان الملك يعد الكاهن الأعلى للإله آشور ، وبذلك كان يبسط سيادته من الناحية الدينية أيضاً ، على العلاقات بين البشر والآلهة .

كانت المكانة الاجتماعية للأسرة ، إلى جانب قوتها الاقتصادية ، معياراً مهماً لممارسة النفوذ السياسي ، منذ العصر الآشوري القديم . أما خلال النصف الأول من الألف الثاني ق.م فيمكن ملاحظة ظهور طبقة عليا من صفوة المجتمع كانت في

الواقع هي التي تحرك الوضع السياسي والاقتصادي في المدينة . وكان حاكم مدينة آشور ينتمي بلا شك إلى تلك الطبقة ، بل يعدّ أنبل رجال المدينة .

لم يحمل الحاكم قبل عهد شمشي أدد الأول لقب " ملك " إطلاقاً ، لأنه كان صفة خاصة بالسيد الأعلى الحقيقي في المدينة ؛ أي الإله آشور . وكانت العلاقة بين الإله والحاكم الدنيوي مبنية على أساس نوع من العلاقة الإدارية .

وثمة سمة أخرى كانت تميز البنية السياسية خلال العصر الآشوري القديم، وتمثلت في وجود عدة لجان شعبية في مدينة آشور، وكذلك في المستوطنات التجارية التابعة لها . وكانت تلك اللجان تمارس نشاطها المستقل في كثير من مجالات الإدارة ، وفي إصدار أحكام قانونية .

لقد كان الحاكم يمارس سلطته كزعيم سياسي رئيس، ومع ذلك يبدو أن سلطته كانت تتأثر عملياً بنفوذ مجالس إدارية تمثّل سكان المدينة .

تغيّر الوضع بعد منتصف الألف الثاني ق.م ، وغدت السيادة السياسية منظمة بشكل وراثي . فقد تطور نظام " دولة المدينة " إلى نظام " دولة إقليمية واسعة النطاق " ، وصار حاكم آشور يحمل لقب " ملك " ، وبدأ النظام الملكي يتّخذ باطّراد أشكالاً من السيادة الفردية المطلقة . ويمكن افتراض أن هذا التطور بدأ خلال عهد شمشي أدد الأول ، وازداد قوة وتسارعت حركته مع انتشار الحملات العسكرية التي أسفرت عن نشوء دولة إقليمية .

كان الملك يتميز ، ويكتسب شرعية حكمه – قبل ذلك – من خلال مهامه كمدير لشؤون البلاد وكاهن للإله آشور ، ثم ظهر في المشهد السياسي علامة أخرى مميزة ، وهي أن الفكر السلالي الوراثي بات مبدأ سائداً مهيمناً على الحكم الملكي . وارتبطت في الأذهان فكرة توارث إحدى القبائل السيادة من جيل إلى جيل ، مع التصورات عن الطفولة الإلهية ، والتشابه الشكلي مع الإله .

لقد كان الحكام الآشوريين يصفون أنفسهم بـ " المخلوق " من قبل أحد الآلهة أو إحدى الإلهات . وكان الناس يرون الملك في صورة مماثلة للآلهة . هذا ما نقرؤه في رسالة إلى الحاكم ، جاء فيها ما يأتي :

الملك ، سيدي ، هو المختار من قبل الآلهة الكبرى. ظلّ الملك، سيدي، يجلب الخير لكل شيء ، ولكل إنسان (.....) . ثمّة مَثَلٌ شائع يقول :

" الإنسان ظلّ الإله " . ولكن أمِنَ الممكن أن يكون الإنسان ظلاً لإنسان آخر !؟ . إنَّ الملك هو على صورة الإله تماماً .

بهذا الشكل تمّ تمييز الملك من بين جموع الناس الآخرين . تفوّق عليهم في القوة والحكمة وجمال الشكل ، ولكنه بالطبع لم يرقَ إلى درجة الإله .

ج- القصر الملكي :

كان الشائع تسمية المبنى الضخم الذي يقيم فيه الملك بالتعبير السومري É.GAL ؛ أي " البيت الكبير " . وفي الدراسات العلمية الحديثة غالباً ما تستخدم كلمة " القصر " للتعبير عن طابعه الوظيفي النموذجي .

لم يكن القصر الآشوري ؛ بل القصر في الشرق القديم كله ، مبنى ضخماً مميزاً بموقعه وأسلوب عمارته ، وأبعاده وزخرفته ، وكذلك بكونه مسكناً خاصاً بالملك وأسرته فحسب ، بل كان يشكل – إضافة إلى ذلك كله – المركز الاقتصادي والإداري للمجتمع عامةً. أي أنه كان بالدرجة الأولى مكاناً واسعاً يضم المؤسسات الاقتصادية والإدارية التي تنظم شؤون البلاد .

كانت واردات ميزانية الدولة وصادراتها تُعَدّ وتُحدّد كأموال للقصر الملكي ، ويُعدّ الحاكمُ بصفته المدير العام ومالك بلاد آشور مسؤولاً عن ميزانية القصر . وتتضح وظيفة القصر كمؤسسة إدارية إجرائية في الحرص على إقامة قصور في المراكز الإدارية الكبرى ضمن المملكة . وكانت قصور المقاطعات هذه مراكز إدارية ، وفي الوقت ذاته رموزاً للسيادة الآشورية .

ضمّت مباني القصور الضخمة المقرّ الرسمي الملكي، وقاعات للملك وأفراد أسرته، وقاعات للاستقبال الرسمي ، وزوايا دينية للآلهة المختلفة. وكذلك قاعات للأعمال الوظيفية المختلفة ، ومحال للأعمال الحرفية ، ومطابخ ، ومخازن ، وحظائر ... إلخ .

كان يعيش في القصر – إلى جانب الملك – نساء الملك وأبناؤه وأخوته وأعمامه وحَفَدته ، وأتباعه وخدم القصر . وكان هناك مدير للقصر يتولّى الإشراف على الإجراءات الإدارية فيه ، ويخضع له موظفو القصر كلهم .

وجد إلى جانب هذا " القصر المركزي " عدد من القصور الأخرى في المدن الرئيسية الكبرى، وقد امتلك ولي العهد، وكذلك زوجات الملوك القويّات – خلال

العصر الآشوري الحديث – قصوراً خاصة يعمل فيها موظفون خاصون ، وتتبع لها أراض زراعية خاصة . أما معلوماتنا عن وضع القصور خلال الألف الثاني ق.م فما زالت قليلة ؛ بسبب أعمال التنقيب الأثري المحدودة حتى الآن .

د- نساء الملك :

لا يُعرف شيء عن نساء الملوك الآشوريين خلال الألف الثاني ق.م ، بـل ولا تُعرف أسماؤهنّ . ولا ندري إن كان ذلك مُجرّد مصادفة في التراث الكتـابي ، أم أنه تعبير عن مكانتهنّ الثانوية ؟

لم تكن زوجة الحاكم الآشوري تحمل لقب " ملكة " ، بل دُعيت بـ " امـرأة القصر " . وكان للملوك الآشوريين عادةً عدّة شريكات حياة ، وواجبهنّ هو ولادة أبناء له- وبالدرجة الأولى ولادة ذكور- وذلك لضمان استمرار الوراثة. وكان ذلك، إلى جانب مدى اهتمام الملك بهنّ – يحدّد مكانتهن ضمن تسلسل نساء الملك .

عُثر في سنة 1989م ، خلال التنقيبات الأثرية في كلخو ، على مدافن عدد من زوجات الملوك الآشوريين الذين حكموا خلال القرنين التاسع والثامن ق.م . وقد بيّنت أنّ زوجة آشور ناصربال الثاني ، واسمها (مُلّيسّو مُكَنّيشة نينوى) كانت قد تزوجت بعد وفاته من ابنه (من زواج سابق) شلمنصّر الثالث الذي خلّفه على العرش. وقد كان ابنه أحد نُدماء الملك آشور ناصربال الثاني الكبار؛ بصفته ساقياً للخمرة .

كما دُفنت في كلخو المدعوة يابا إحدى زوجات الملك تجلت فليسر الثالـث ، وبانيتو إحدى زوجات الملك شلمنصر الخامس ، وأتاليا إحدى زوجـات الملـك شركين الثاني . ولا يعُرف شي آخر عن هذه النساء .

أما وضع شمّو رامات، المشهورة بالاسم الإغريقي لها: سمير أميس ، فهو مختلف. إذ يمكن أن يستخلص من حبكة الأسطورة الإغريقية التي تدور حولها أنها كانت امرأة متميزة في زمانها ، وتمتلك سلطةً مذهلة . كما تظهر مكانتها القوية في نص كتابي مدوّن على مسلّة حجرية خاصة ، أُقيمت في شارع المواكب الاستعراضية بآشور ، إلى جانب مسلاّت الملوك الآشوريين . وفيه تعرّف شمّو رامات بطبيعة صلاتها بثلاثة ملوك، حيث تذكر أنها "سيّدة قصر شمشي أدد"و"أمّ أدد نيراري"و"جَدّة شلمنصر".

وفي زمن تال امتلكت نقيه زكوتو مكانة قوية مشابهة، وقد ذكرنا سابقاً أنها كانت أمّ الملك أسرحدّون وجَدّة الملك آشور بانيبال .

كانت " نساء القصر " تشكلن – كما يبدو – مجتمعاً خاصاً ضمن القصر، يمكن مقارنته بمجتمع " الحرملك " المعروف في عصور أحدث. وتبيّن النصوص الكتابية أنه كان يقيم في الحرملك أمّ الملكة وزوجات الملك الرئيسات وعشيقاته ، وعدد كبير من الزوجات الثانويات. وكانت علاقة النساء مع بعضهن ومع العالم الخارجي منظمة بشكل صارم، ولم يكن يُسمح لغير أناس محدّدين بالدخول إلى جناحهن ، كما لم يكن يُسمح لهن – إنْ تمّ ذلك – بمغادرة الحرملك دون مرافق .

وخلال العصر الآشوري الوسيط؛ أصدر الملوك الآشوريين مراراً تعليمات تحدّد طبيعة العلاقات بين المجموعات المختلفة المقيمة في البلاط الملكي، ومن بينها مجموعة نساء الحرملك. وتُعرف مجموعة هذه المراسيم التي تعود إلى قرون عدة – في الدراسات العلمية – بمراسيم البلاط والحرملك .

في أحد هذه المراسيم يقرّر الملك تجلت فليسر الأول (1112-1074ق.م) ما يأتي :

تجلت فليسر ملك الكون؛ ملك بلاد آشور، ابن آشور ريشا إشي ملك بلاد آشور، أصدر الأمر (التالي) إلى نُدمائه :

إذا ما سمع أحد المخصيين أو أحد الندماء أو أحد الخدم إحدى نساء القصر، وهي تشتم أو تتشاجر مع أخرى ، ويظلّ واقفاً ، ويصغي إليها ، فإنه سوف يُجلد مئة جلدة ، وتُصلم إحدى أذنيه .

هـ- البلاط :

كان البلاط الملكي يضم " الذين يقفون أمام الملك " ، وهم ندماء الملك (من المخصيين والملتحين) وأفراد الأسرة الملكية – ولاسيما أقاربه الذكور – والموظفون الكبار والصغار في المملكة، وموظفو القصر الملكي والرهائن والضيوف المتميزون .

وكان هؤلاء جميعاً يشكلون وحدة اجتماعية هي عماد البلاط ، وانتظمت بين مجموعات أفرادها قواعد ثابتة في التعامل .

ازداد نفوذ كل منهم بقدر قربه من الملك . وكان أهم موقع في البلاط يـــشغله مستشارو الملك الذين كانوا يجتمعون عادة في مجموعات مؤلفة من خمسة إلى عشرة رجال ، ويمارسون دورهم في المجالات الإدارية والرسمية ، وكذلك في الوظـــائف العسكرية غالباً . وقد بلغت درجة تأثير هؤلاء " الكبار " في بلاد آشور أحيانـــاً ، بحيث صار نفوذهم يشكل خطراً على الملك ذاته . وفي الألف الأول ق.م صار يعدّ من هؤلاء الكبار مستشارُ الدولة – الذي يُعرف في الدراسات أحياناً بصفة مـــدير الخزينة أيضاً – ومعلنُ أوامر القصر وكبير السُّقاة وكبير المخصيين ومفتش المملكة والوزير الكبير والقائد العام للجيش .

يرد الحديث عن معظم هذه المناصب الحكومية العليا منذ العـــصر الآشـــوري الوسيط ، ويمكن الحكم بأنها ظهرت نتيجة تبدل أسس النظام الملكـــي وأســـلوب حكم الدولة في حوالي منتصف الألف الثاني ق.م .

وثمة تساؤلات مهمة تتعلق بالوظائف الحكومية، تصعب الإجابة عليها، ومنها : هل كان شغل منصب ما مشروطاً بتوافر تأهيل معيّن ؟ ما الدور الذي كان يلعبه الانتماء (الاجتماعي) للمرشح ؟ هل حدّدت لبعض المناصب فترة زمنية معينة ؟ كيف كانت تتم عملية وراثة المناصب ؟ ما هي الظروف التي كان من الممكن أن تؤدي إلى الجمع بين أكثر من منصب ؛ الأمر الذي تم ذكره في النصوص مراراً ؟

يمكن – في ضوء المصادر الكتابية – ملاحظة التأثيرات التنظيمية السياسية على المجالات والمستويات الإدارية المختلفة بشكل دقيق ، خلال فترات زمنية محـــددة ، فمن الممكن التعرّف بشكل جيد نسبياً على طبيعة مسؤوليات ذوي المناصب العليا في المملكة ، خلال حكم ملوك السلالة السرجونية ، حيث كان هؤلاء يـــشكلون مع الملك حكومة المملكة الآشورية . وتختلف الدراسات في الحكم بإمكانية وجود مبادئ فكرية سياسية ارتبطت بهذا " المجلس " .

كانت مجموعة المستشارين المحيطين بالحاكم تشكل محفلاً سياسياً يعكس صورة " المجلس الاستشاري للآلهة الكبرى " الذي كان أنموذجاً أسطورياً معروفاً في بلاد الرافدين ، منذ الألف الثالث ق.م .

يبدو أنه كان يتم اختيار أعضاء البلاط بعناية، وثمة مناصب كان يتم توارثها ضمن أفراد أسرة ما جيلاً بعد جيل ، ولا ندري إن كان ذلك مجرد حالات اســـتثنائية ،

ولكن المؤكد هو أن المناصب المهمة في الإدارة الحكومية ، وكذلك في المؤسسات الدينية، كانت توكل إلى أشخاص مخلصين، وغالباً من أفراد الأسرة الملكية .

عُرضت في رسائل كيفية اختيار أشخاص معينين، وفق معارفهم الخاصة وقدراتهم. ويتضح فيها أن القبول في المناصب العليا المقرّبة من الملك والتي تحظى بالتعظيم ، كان مرتبطاً بتوافر مميزات خاصة في الشخص المختار .

كانت العلاقات الحسنة مع البلاط شرطاً مهماً؛ إذا ما أراد المرء أن يعرض رغبة معينة على الحاكم. وكان ذلك يتم بأسلوبين؛ إما بأن يرجو مسؤولاً مهماً في البلاط لينقل رغبته إلى الحاكم ؛ بعد أن يقدم له هدية أو مكافأة على ذلك ، وإمّا أن يحاول مقابلة الملك شخصياً .

وجدت ضمن المحفوظات الرسمية للدولة الآشورية رسائل من أشخاص لم يحالفهم الحظ في الحصول على العطف الملكي . وثمة شخص كان يدعى أُردو جولا يشكو حاله في إحدى الرسائل ، بأسلوب التملّق والنفاق ، يقول فيها :

آهٍ ، ليت الملك ، سيدي ، يولي اهتماماً بحال عبده (.......) . كنت في البداية، خلال عهد والد الملك، رجلاً فقيراً ، وابن رجل فقير، كنت كلباً ميتاً ، رجلاً فاسقاً خليعاً، ولكنه جعلني عالي الشأن، وتلقيت منه هدايا تقديرية، وبات اسمي يذكر بين أسماء النبلاء . تمتعت بحياة الغنى ، وبين حين وآخر قدّم لي بغلاً أو ثوراً. وسنة إثر سنة صرت أقتني مانا (500غ) أو اثنين من الفضة (.....) كنت أقف أمام النافذة واستمتع بالتأمل. قضيت حياتي يوماً بعد يوم في خدمته .

(....) والآن، ها قد رسخ الملك، سيدي، في خلافة أبيه اسماً طيباً ، ولكني أنا لم أُعامل بشكل لائق يتناسب وخدماتي . لقد صرت أعاني بشكل لم يحصل من قبل (....) ها قد مضت سنتان على موت حيوانين لي ، لا أملك غيرهما . وقد سافرت ثلاث مرات إلى أربيل، ومرة إلى آشور، وعبّرت عن حالي البائسة، ورجوت عطف اليد الملكية ، وأوصلت أمري إلى الملك ، سيدي (.....) .

كان الملك يكافئ رجاله الأوفياء بمنتوجات الطبيعة ، ومنسوجات ، وحيوانات مفيدة في الحياة اليومية ، وأحياناً بأدوات نفيسة كالخناجر والأواني المنزلية ، أو بقطع تزيينية مصنوعة من مواد نفيسة .

إن مصدر ثروة الحاكم التي كانت تكاد لا تنضب ، كان يكمن بالدرجة الأولى في حصصه من الأراضي الزراعية التي يمتلكها بالاشتراك مع السكان المقيمين فيها . وكان ثمة نوع من العلاقة الارتباطية الضرورية بالحاكم — كما تظهر رسالة أُردو جولا — بسبب ثروته الوفيرة ، ومن ثم فإن ولاء الأتباع له كان قابلاً للكسب والشراء ، كما إن كثيراً من التمردات في القصر الملكي كانت تحصل بدافع الحسد وعدم الرضا .

تمتع المخصيون بأهمية خاصة بين الرجال المقربين من الملك ، خلال العصر الآشوري الوسيط ، وبشكل أكثر خلال العصر الآشوري الحديث . وكان من أبرز مهامهم المتعددة رعاية شؤون جناح النساء الملكي (الحرملك) ، وشكلوا خلال الألف الأول ق.م مجموعة خاصة متميزة ضمن البلاط الملكي .

يُصوّر المخصيون في المنحوتات الفنية بشكل مختلف متميز عن الآخرين ، من خلال تصويرهم بلا لحية، وكانوا يحملون في الغالب أسماء تعبّر عن ارتباطهم الخاص بالحاكم . وقد تم تكليفهم بوظائف عالية المستوى ، ونالوا ثقة الملك ، وكانت أصولهم غير واضحة .

من المؤكد أنهم كانوا يمتلكون ولاء خاصاً مميزاً للملك ، ولاسيما أنهم كانوا يفتقرون إلى أسرة خاصة يمكن أن يعملوا لتحقيق مآربها الخاصة. ويبدو من النصوص أن الهبات وقطع الأراضي الممنوحة لهم من الحاكم كانت تعود للإمارة بعد موتهم .

و- المعتقدات الدينية :

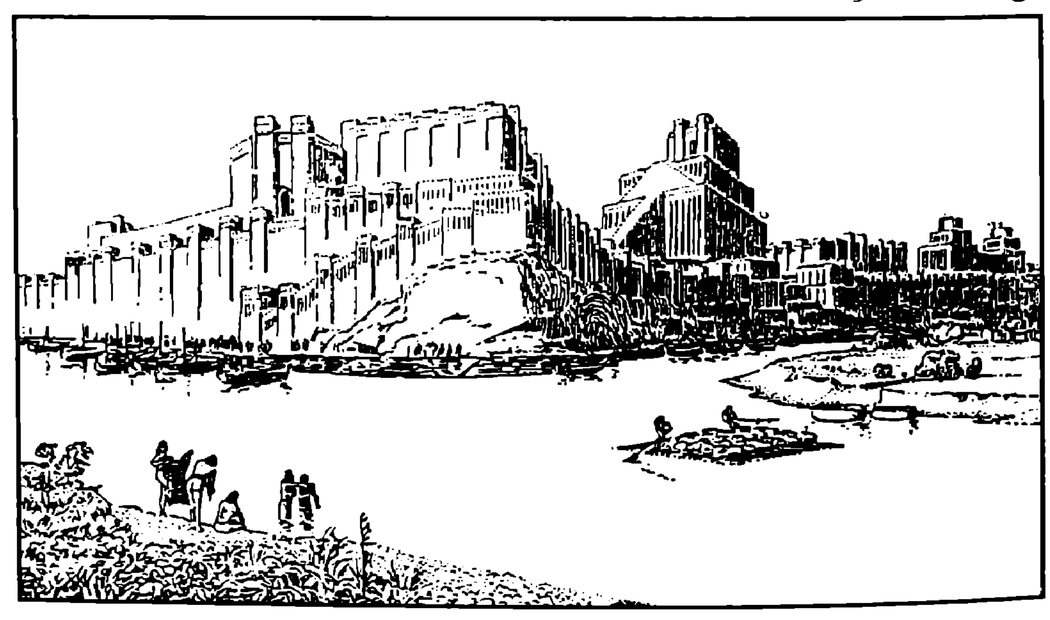
لم يكن الحاكم الآشوري السيد الأعلى سياسياً فحسب ؛ بل الكاهن الأعلى للإله آشور ؛ إله المدينة ، وفيما بعد إله المملكة أيضاً . ولم يكن آشور بالتأكيد الإله الوحيد في مدينة آشور ، بل إن المدينة كانت تعدّ خلال القرن الثامن عشر ق.م "مدينة الآلهة الكثيرة" ؛ كما ورد في رسالة اكتشفت في مدينة ماري .

لقد كانت عبادة عدد كبير من الآلهة سمة من سمات النظام الوثني التعددي الشائع في الشرق القديم ، ولم تكن مدينة آشور مستثناة منه . ومن المرجح أنه كانت تتم فيها ، منذ الألف الثالث ق.م — عندما كانت آشور تابعة للمملكة الأكّدية ، ثم

لحكم ملوك سلالة أور الثالثة — عبادة الآلهة والآلهات الأساسية في المجمع الـــديني الرافدي العام ، إلى جانب الآلهة المحلية . ولذلك تعود سلسلة طبقات البناء المتتالية في معبد عشتار إلى الألف الثالث ق.م ، أما المباني الدينية الأخرى في المدينة فلم تجر دراسات مماثلة فيها بعد . ولكن من الواضح أنه وجدت في آشور معابد لجميـــع الآلهة الكبرى ، حتى القرن السابع ق.م . كما يمكن التأكيد — بناء على ما نعرفـــه عن الجهاز الوظيفي العامل في خدمة الآلهة ومعابدها — على أن آشور لم تـــشهد تطورات خاصة مختلفة في هذا المجال عن سائر مناطق بلاد الرافدين .

تظهر أهمية الإله آشور الخاصة بين العدد الوفير من الآلهة التي كانت تقيم في معابد المدينة . يقع معبده على منحدر صخري يعلو فوق مجرى نهر دجلة (انظر الشكلين 1 ، 5) ، وأساساته غير منتظمة ، لأنها محددة مقيدة بالوضع الجغـــرافي الطبيعـــي للمكان ، وهو يتألف من مبنى شعائري مركزي، وساحة كبيرة ممتدة نحو الجنوب.

كان المعبد يدعى إشَرّا "بيت الجميع"، وهو اسم يعبّر عن برنامج مستقبلي . أما المكانة الرفيعة لإله المدينة فلا تحتاج إلى توضيح أكثر. ولم تكن تقل من حيث المبدأ عن مكانة سائر آلهة المدن .



الشكل (5) شكل تصوّري للزاوية الشمالية من مدينة آشور ، من رسم W.Andrae

لقد كان الإله آشور يحتل في الواقع مكانة خاصة ، ضمن عالم الآلهة الـوفير في بلاد الرافدين . وهي ترتبط مع حركة تطوره من إله محلي للجبل والمدينة إلى إلـه لعموم مناطق المملكة الواسعة . ومازالت الظروف والتأثيرات التي أسهمت في هذا التطور ، ورافقته ، غير واضحة تماماً حتى الآن .

يمكن في ضوء التبدلات الحاصلة في مظاهر الإله آشور ، اعتماداً على المصادر ، إعادة رسم بعض ملامح طبيعته . فقد كان يمثّل المرجع الإلهي الأساسي في مدينته التي كانت مركزاً تجارياً رئيساً، وكذلك بالطبع في مجال حركة التجارة المنطلقة من آشور إلى أماكن بعيدة .

ويبدو أن شمشي أدد الأول، الذي احتل آشور في مطلع القرن الثامن عشر ق.م، نقل إليها الفكر الديني الشائع في مدينة نيبور (حاليـاً : نُفَّر) ، وكانت هذه تُعَدّ — إلى جانب مدينتي أوروك وأور — من المراكز الدينية الكبرى في جنـوبي بـلاد الرافدين ، وكان إلهها الرئيس هو إنليل " سيد العواصف" ؛ أحد كبار الآلهة ضمن المجمع الديني في بلاد الرافدين .

كان إطار سيادة إنليل هو الأرض وما عليها ، ومن وظيفته — حسب التـصور الرافدي — رعاية نظام العلاقات البشرية على الأرض ، ولذلك عُدّ سيّد الملكيـة والحكم أيضاً . ولا ندري إن كان تعلّق شمشي أدد الأول بالفكر الديني في نيبـور اعتمد على أسس فكرية فقط ، ولكن المؤكد أن له الفضل في إثارة مظهر فكـري ديني ، بات يوصف في الدراسات الحديثة بفكرة " التوافق بين آشور وإنليـل " . وبذلك صارت كثير من سمات الإله إنليل تُنقل لتشمل الإله آشور أيضاً ؛ ولاسيما كونه سيد الملكية والحكم ، والحاكم على الأرض . كما إن الإلهة قرينـة آشـور صارت معادلة للإلهة نينليل قرينة إنليل ، وتعبد في بلاد آشور باسم موليّسّو . بـل إن أبرز مظاهر التوافق الذي حصل بين الإلهين يكمن في نقل الاسمين الوصـفيين لمعبد إنليل في مدينة نيبور، وهما " إكور " البيت الجبلي " ، إشرّا " بيت الجميع " ، وإطلاقهما على معبد آشور .

بعد أواسط الألف الثاني ق.م ، عندما تحولت دولة آشور إلى قوة عظمى ؛ صار الإله آشور يحمل ألقاباً تتوافق مع هذا التطور . ومن المؤكد أن انتشار أهميته تمّ من قبل ؛ منذ مطابقته مع الإله إنليل ، ولم يكن أمراً جديداً تماماً في بلاد الرافدين .

كانت الإلهة إنانّا/عشتار خلال حكم ملوك أكّد (نحو القرن الثالث والعشرين ق.م)، والإله مردوك إله مدينة بابل خلال حكم حمورابي البابلي (القرن الثامن عشر ق.م)، قد احتلا قمة مجمع الآلهة الرافدية. ويمكن ملاحظة أن بروز شأن مثل هذه الآلهة المتميزة كان يرتبط غالباً مع تكوّن الممالك الكبرى ، ومن الممكن أن هذه الأنماط من السيادة السياسية كانت تعتمد على وجود "إله أعلى". ولذلك فإنه ليس من المستغرب أن يكون تكوّن مملكة في بلاد آشور مرتبطاً بزيادة شأن الإله آشور.

أما ممارسة المطابقة بين الإله الآشوري آشور ورأس المجمع الديني البابلي مردوك، وذلك بشكل منتظم مطّرد خلال حكم السلالة السرجونية في أواخر القرن الثامن وفي القرن السابع ق.م ، فقد كانت محاولة أخرى لتقوية مكانة الإله آشور ، وبهذه الطريقة أضحى آشور عنصراً فاعلاً أساسياً في التصور الأسطوري عن نشأة الكون، الذي يُعرض في أسطورة الخليقة البابلية إنوما إيليش .

لقد صعد آشور إلى قمة مجمع الآلهة الرافدية ، خلال الألف الأول ق.م ، حيث صار يُذكر في بداية أسطورة الخليقة، من خلال مطابقة واعية هادفة له مع أبي الآلهة أنْشار. كما صار يُعرض بشكل رمزي تصويري، وكان مزاره الموجود مع مزارات جميع الآلهة الكبرى الأخرى في معبد إشرّا ، بيت الجميع ، أكثرها بهاء وتزييناً .

يتحدث عنه الملك أسرحدّون ، فيقول :

لقد كسوتُ الجزء الداخلي من مزار الإله آشور، سيدي، بالذهب، ووضعت عفاريت حامية وأشكالاً مجنّحة مُشكّلةً من الذهب الأحمر على جانبيه (.....) وطليت جدرانه بالذهب ، كما تُطلى الجدران بالطين .

وفي هذا الجزء كان ينتصب تمثال للإله آشور، كان الناس يحملونه ويطوفون به عبر المدينة، في مواكب ضخمة، خلال الأعياد الدينية المتميزة. كما وجدت فيه تماثيل للملك ترمز إلى عبادته الدائمة .

ولكن على الرغم من هذه الممارسات الهادفة إلى ربط الإله آشور بمجمع الآلهة الرافدي العام؛ فإنه لم يتمتع بجميع خصائص الآلهة السومرية - البابلية، بل إنه لم يكن محور فكر أسطوري خاص ؛ باستثناء ما نُقَل إليه من الفكر الأسطوري المردوكي .

ظل معبده الديني في آشور هو الوحيد ، بعد أواسط الألف الثاني ق.م ، ولم تفلح محاولة العثور على معبد آخر له في مدينة كار توكولتي نينورتا . وتبين أنه لم تكن هناك مزارات للإله آشور في مدن أخرى ، أو ضمن معابد آلهة أخرى .

ولذلك فقد صار معبده في مدينة آشور مركزاً أساسياً لعبادته في المملكة الآشورية . وتبين سجلات إدارة النذور الدينية ، التي كشف عنها في المعبد ، أنه كان يتوجب على جميع مقاطعات المملكة أن تسهم بشكل منتظم في تمويله ، وأن النذور المقدمة المختلفة المذكورة فيها ، مثل : ثيران البحر ، طيور ، وحوش برية ؛ وكذلك أدوات زراعية ، تمثّل جميع المناطق المحتلة من قبل الآشوريين .

كانت شعائر عبادة الإله آشور منظمة، على غرار ما كان يجري في معابد أخرى في الشرق القديم . وقد تولّت طائفة الكهان عملية تنظيم الشعائر ورعايتها ، وكان حاكم مدينة آشور، في الوقت نفسه، يعدّ الكاهن الأعلى لآشور إله المدينة، وأوكلت إليه واجبات شعائرية كثيرة تتناسب وذلك الدور ، وكان من الممكن — في حال غيابه — أن ينيب عنه شخصاً آخر ، أو يكفي أن يترك إحدى قطع زيّه الرسمي ، كالمعطف مثلاً ، لتكون ممثلاً عنه في الاحتفال الشعائري .

كان الملك مسؤولاً عن صيانة بناء المعبد، وسلامة أداء الشعائر ومكانها. ولذلك فإن الحديث عن ترميم المعابد وتوسيعها أو تجديدها احتل حيزاً مهماً في التقارير التي تتحدث عن منجزات الحكام. كما إن التجاور المكاني المباشر بين معبد آشور والقصور الملكية القديمة كان تعبيراً عن العلاقة الوثيقة بين الملك والإله. وثمة إشارات إلى زيارات دورية كان يقوم بها الإله آشور، وكذلك آلهة أخرى، إلى الملك في قصره .

ولكن نقل مقرّات الحكم إلى أماكن خارج مدينة آشور ، منذ أواخر العصر الآشوري الوسيط، أدى إلى زوال فكرة التجاور بين السيد الأعلى الإلهي (الروحي) والأرضي.

ز- مات الملك . عاش الملك !

كانت سلامة البلاد ترتبط — حسب التصور الرافدي — بسلامة حاكمها ، ولذلك فإن موت أحد الحكام كان يؤدي إلى نشوء وضع خطر مضطرب ، لا يمكن

تجاهل خصوصيته ، كما إن اضطراب العلاقة المنظمة بين الإنسان والآلهة كان ينـــشر الهلع. يضاف إلى ذلك كان ثمة تخوف دائم من تمردات سياسية داخلية وخارجية.

ضم البلاط الآشوري بشكل مستمر مجموعات مختلفة من الأفراد، تنتظر الفرصة المناسبة لتولي السلطة. فالاعتماد في التعيين على النَسَب الملكي لم يكن كافياً وحده لإضفاء الشرعية على حكم الحاكم ، لأن الملك الواحد كان في العادة يخلّف أبناء وحفدة كثيرين . ولهذا كان كل حاكم مهتماً بتحديد وريث لعرشه خلال حياته ، بهدف ضمان حسن انتقال الحكم .

لا نستطيع بعد أن نكوّن صورة واضحة عن مجريات تعيين حـــاكم جديـــد . وبالطبع يجب التمييز بين عملية تولي السلطة التي كانت تتم بعد مـــوت الحـــاكم السابق مباشرة ، وعملية ممارسة الإجراءات الشكلية التقليدية في تنصيب الحـــاكم الجديد رسمياً .

كان سكان آشور يدفنون موتاهم تحت سطح أرضية بيوتهم السكنية ، وذلـــك ضمن مدافن بسيطة أو أخرى مرتبة محاطة بجدران . ويبدو أن دفن ملوك آشـــور كان يتم كذلك أيضاً ، فقد عثر المنقبون ضمن القصر المسمى بـــ" القصر القديم " على ستة مدافن ملكية ، وقد بدا مكان دفن الأضرحة والمداخل المؤدية إليه مخربـــاً كلياً ، وتحطمت الحجارة الضخمة الثقيلة الموضوعة على الأضرحة ، وتحولـــت إلى قطع كثيرة ، كبيرة وصغيرة ، كما اختفت منها النذور التي كانت توضـــع فيهـــا عادة .

نعلم أن آشور بانيبال أعد ضريحه خلال حياته . وتبين نصوص كتابية توثـــق مسائل تقديم النذور على أرواح المتوفين . أن شعائر رعاية الأضرحة كانت تـــنظَم ضمن إطار الجهاز الإداري الديني .

ثمة نص آشوري حديث صغير ، يساعد ما جاء فيه على تكوين انطباع عـــن شعائر الدفن ومراحلها . فقد كانت تُنظّم لدى موت الحاكم جلسة عزاء عامـــة ، ويُنقل جثمانه ضمن موكب مناسب إلى المقبرة ، وهناك يكفَّن مرتدياً لباسه الرسمي ومتقلداً جميع شاراته الملكية ومعه نذور دفن ثمينة ، ثم يُنـــزل إلى القبر .

وكانت تتم بشكل منتظم زيارة الموتى من الحكام والناس البسطاء أيضاً ، وتُحمل إلى قبورهم نذور في هيئة سوائل أو أطعمة. ويفترض أنه كانت تقام شعائر تذكارية ضخمة لهم، خلال مواعيد معينة، وفيها كان يتم تجديد التذكير بالأموات. وربما كانت " قائمة الملوك الآشورية " التي ضمت أسماء ملوك آشور لعبت دوراً في هذا الأمر .

ونظراً لأن قبر كل من الملكين أسرحدون وآشور بانيبال وجدا في مدينة آشور، فمن الممكن الحكم بأن الملوك الآشوريين المتوفين كانوا يدفنون بشكل منتظم هناك، وليس في مراكز الحكم الأخرى .

إن الاهتمام الزائد بأصول الدفن وأعرافه كان تحسّباً من العار الذي يمكن أن يلحقه خصوم بهم ، وتخوّفاً من قيامهم بمنع الدفن أو تخريب المدفن ؛ وذلك كما في حالة الملك سرجون (شركين) الثاني . ومما يذكر في هذا السياق أن الملك آشور بانيبال لم يخجل – بعد نصره على عيلام – من انتهاك حرمة مدافن الأسرة الملكية العيلامية ، ومعاقبتها بأفظع الأساليب . جاء في تقرير عن عمله هذا ما يأتي :

خرّبتُ مدافن ملوكهم الأوائل ... حطّمتُها وجعلتها مكشوفة لضوء الشمس، أما عظامهم فنقلتها إلى بلاد آشور .



الشكل (6) مشهد تنصيب الملك . مصوّر على خوذة برونزية آشورية، من القرن التاسع

جرى الاحتفال بالتنصيب الرسمي للملك الجديد بشكل مطّرد في آشور. ولدينا نص كتابي من العصر الآشوري الوسيط يصف التنصيب الأول للملك، أو ربما شعائر خاصة بتلك المناسبة كانت تكرر سنوياً. وفيه نقرأ كيف أن الملك كان يُقلّد الرموز والشارات الملكية في معبد الإله آشور، ثم يُنقل إلى القصر الملكي، حيث يلتقي بكبار رجالات المملكة ، ويصدّق على تعيينهم في مناصبهم الإدارية. ومن المرجح أن هذه الشعائر كانت تتم ضمن إطار الاحتفالات برأس السنة الجديدة .

ولعل الوصف التصويري الوحيد لتنصيب ملك آشوري هو الموجود على خوذة برونزية، تعود إلى أواسط القرن التاسع ق.م. وفيه نرى — في وسط المشهد — فوق الجبهة مجموعة أشكال، عددها خمسة ، وهي :

الحاكم في الوسط، وهو يتقلد الرموز والشارات، ويرتدي ثوباً طقسياً مميزاً، ويلتفت نحو الإله آشور الموجود على الجانب الأيسر، ويحمل الإله في يده اليسرى عصا الحكم. وخلف الحاكم نرى الإلهة عشتار وهي تَهمّ بوضع التاج الملكي على رأس الملك. وعلى الجانبين نرى جنّيين صغيرين لهما رأس طائر، ووظيفتهما الحماية. أما فوق المشهد فيوجد قرص الشمس المجنحة .

وثمة مشهد آخر ، صغير ، على الخوذة يصوّر ملكاً آشورياً وهو يمارس الحكم ، ويستقبل الخصم المهزوم .

وهناك نصوص كتابية من العصر الآشوري الحديث تقدم انطباعاً عن التصورات المتعلقة بالتنصيب الملكي، فقد كان من واجب الحاكم المُقلّد أن يخضع أولاً لعملية طهارة شعائرية وعضوية، ثم يتم تحضير رموز المنصب وشاراته، وهي: العرش، التاج، الرمح، العصا، الحلقة. وكان ذلك يترافق مع شعائر مفصلة محددة .

والصيغة التعبيرية التي تتكرر في النصوص (**ليت روح الحماية الصالحة وجنّية الحماية الصالحة الخاصتين بالحكم والملكية تكونان مستقرتين في جسد الملك دائماً**) توضح أن الناس آنذاك تصوروا أن أعضاء جسم الملك كلها كانت تصير مشبعة بالقوة والروح الملكية . هذا التصور واضح تماماً — حتى الآن - في نصوص من العصر الآشوري الحديث فقط ؛ ولاسيما في نصوص من القرن السابع ق.م ، ولكن بشكل عام يمكن القول إن نقل رموز الحكم كان يشكل صورة مرئية لشرعية الملك . أما من الناحية القانونية فكانت شرعيته مستمدة من قبول الآلهة به ، وكان

ذلك يحصل خلال تحديد والده له لوراثة العرش وموافقة الآلهة كلها على ذلـــك، ويبدأ سريان هذا الأمر مع موت والده .

ح- أسس الحياة الاقتصادية :

كان التجمع الأُسري – المؤلف من الأسرة بمفهومها المحدد والموسّع – يـــشكل في الشرق القديم وحدة اقتصادية مصغرة، يمكن تسميتها بـــ "الاقتصاد المنـــزلي" . وكان يترأسها عادة زعيم الأسرة . كما إن المركزين الإداريـــين الأساســـيين في المجتمع الشرقي القديم ؛ أعني القصر والمعبد ، كانا يمثلان في الحيـــاة الاقتـــصادية والاجتماعية القوةَ العظمى في أشكال تدبير الاقتصاد المنـــزلي ، حيث كان الحاكم والإله يحتلان الدور الرئيس في إدارة ذلك .

وكانت التجارة بالقصدير والمنسوجات تشكل خلال النصف الأول من الألف الثاني ق.م دوراً مهماً، بل الدور الأهم، في تأمين الميزانية المالية اللازمة لمدينة آشور. وقد اعتمدت المعاملات التجارية كلها على مبدأ المقايضة ، ويبدو أن كميات من القطع المعدنية الموحدة في الحجم تم تداولها ، وكانت لها وظيفة مـــشابهة لوظيفـــة النقود . وكانت القطع ؛ ولاسيما في المراحل المتأخرة من التاريخ الآشوري ، مـــن الفضة والبرونز والنحاس . ومن غير الواضح بعد ؛ دور الملك في ضبط ما يتعلـــق بحجمها وأوزانها ، ولكن كان ثمة – مثلاً – موظف حكومي مهمته التحقق مـــن نقاء الفضة المتداولة ، كما تشير نصوص كتابية إلى وجود تحديد دقيق لما يمكن أن يسمى " التعرفة السعرية " لمختلف تلك القطع النموذجية ، ويمكن تتبّـــع التعرفـــة السعرية لكثير من أنواع السلع ، خلال مدة زمنية طويلة .

ومما يجدر ذكره – في الدرجة الأولى – دور الفضة الأساسي في تأمين المستوردات، وكذلك في المعاملات التجارية، بشكل عام . حيث كان المرء يـــشتري بالفـــضة حاجاته ولوازمه اليومية ، وكذلك العقارات والبيوت .

أشرف القصر الملكي خلال المراحل المتأخرة من التاريخ الآشوري على الحركة التجارية، بشكل كبير. ولذلك فإن مندوبي الملك كانوا يسافرون إلى أماكن متفرقة في مهمات دبلوماسية وتجارية في آن واحد ، وكان هؤلاء في الغالب ذوي مراتب عسكرية ، ويستعينون بالجيش في جمع الضرائب الحكومية .

لا نعرف معلومات وافية عن الوضع الاقتصادي في بلاد آشور خلال العصر الآشوري القديم ، نظراً لعدم توافر المصادر الكتابية المساعدة على ذلك . أما في المراحل المتأخرة من التاريخ الآشوري فيبدو أن سكان المناطق المستثمرة اقتصادياً كانوا يدفعون حصصاً محددة من إنتاجهم إلى القصر أو المعبد الذي يتبعون له ، وذلك كضرائب. وكان هناك نوع من السخرة الإلزامية يتم التكليف بها في فترات زمنية محددة ، وتشير وثائق كتابية إلى أنه كان بإمكان المرء تأدية ذلك بشكل غير مباشر، إذ يكلف شخصاً بديلاً منه. وتظهر عمليات بيع العقارات أن هذا الواجب الإلزامي كان محصوراً بمالكي الأراضي .

تعرّض الفلاحون الصغار في المناطق المحيطة بآشور ، خلال القرن الرابع عشر ق.م ، لحالة متزايدة من تراكم الديون عليهم ، لا نعرف أسبابها . ولذلك ما عاد بإمكانهم تنفيذ الواجبات المالية المفروضة عليهم ، ووصل الأمر إلى درجة أنهم لم تبق لديهم بذار ولا مواد غذائية . ويبدو أن الأسر الغنية في المدينة استغلت هذا الوضع ، وقامت بتقديم قروض مالية مقابل الاستيلاء على الأراضي التي كانت تعود إلى تجمعات في القرى أو فلاحين صغار . وتبين الوثائق التي تتعرض لهذا الأمر أنه توجب على المدينين الاستمرار في أعمال الزراعة فيها ، وإعادة القروض التي استلموها على دفعات من أتعابهم .

كما إن الأسرة الحاكمة استولت على مساحات واسعة من الأراضي بالطريقة ذاتها . ولا نعرف إن كانت صارت جزءاً من ممتلكات الدولة ، أم ملكاً خاصاً ، ولذلك يصعب التمييز بين الملكية الحكومية والملكية الخاصة آنذاك .

ولعله مما يعقد صورة الوضع وجود عدد ضخم من الوثائق الاقتصادية والإدارية التي توثق — خلال قرون عدة ، وبحسابات مفصلة ودقيقة — المسائل الاقتصادية الرسمية والخاصة ، المتعلقة بالإنتاج والمتاجرة بكميات ضخمة من المواد ، والضرائب المفروضة على ذلك .

إن العامل المهم في الوضع الاقتصادي والإداري في المملكة الآشورية كان وجود شبكة منظمة من الطرق الرابطة بين أجزائها. وقد تنقّل عليها المراسلون ، واستلموا خلال أسفارهم في المحطات القائمة عليها ، مواد طازجة وأخرى احتياطية . كما إن الحاكم كان يظل في حالة تنقّل ؛ عندما لا يكون في حملة عسكرية أو في مناسبة

دينية في آشور ، وتكون إقامته في القصور الموجودة في المدن الكبرى ، ويتحمّل حكامها نفقات الملك والوفد المرافق له . ويقوم الملك باستقبال وجهاء تلك المدن ، ويستغل وجوده في الفصل في خلافات معقدة قائمة فيها .

ط- ملاحظات عن أشكال القانون :

كان المبدأ الأساسي في بلاد آشور هو أن الحاكم يعدّ المرجع القانوني الأعلى ، وهو يجمع في شخصه بين صفتي مصدر القانون والحاكم به . ومن ناحية ثانية كان التقليد السائد في بلاد الرافدين كلها هو أن حماية القانون والنظام تكليف إلهي ينفّذه الحاكم ، وهذا التكليف والواجب يعبّر عنه في صيغ الألقاب التي تلقب بها الحكام ، مثل " ملك العدالة " ، وقد تجاوز تأثيره الإطار الضيق للنظام القانوني في المجتمع ، وبلغ درجة أن الملك كان لا يرى نفسه راعياً ضامناً للقانون والعدالة إزاء أتباعه ؛ بل حامياً للنظام الكوني كله . ومن هذا المنطلق فإن إلحاق الهزيمة بالخصم الخارج على قراراته كان إجراء ضرورياً لحفظ هذا النظام .

أما المسائل القانونية العامة وحل النزاعات الشعبية فكان يتولاها أفراد من الإدارة الحكومية ، بصفتهم قضاة . حيث يتم الإقرار والتصديق على الحالات القانونية المعروضة، من قبل شهود حاضرين، وتُصاغ كتابياً كوثائق قانونية تتضمن أسماء الشهود وطرفي الخلاف ، ويتم ختمها ، وفي حال عدم توافر أختام لديهم يتم البصم بالأصبع على الطين (الرّقيم) الطري . وقد تم الكشف عن وثائق قانونية كثيرة العدد ، ومن مراحل مختلفة من التاريخ الآشوري ، وتضم عقوداً تجارية ووصايا ووثائق نزاعات ، وكذلك مجموعات من مواد قانونية ومراسيم .

ي- قياس الزمن وحسابه :

كانت جوانب الحياة الاقتصادية والقانونية والإدارية تتطلب أسلوباً معيناً معتمداً في عملية تحديد الزمن (التأريخ). وتعدّ التواريخ الدقيقة المذكورة في الوثائق القانونية والإدارية، وكذلك في النقوش الملكية، وسيلة موثوقة تعتمد عليها الدراسات الحديثة في إعادة ترتيب الأحداث التاريخية في بلاد آشور .

كان الشائع في مدينة آشور استخدام نظام تأريخي قائم على تسمية السنوات بأسماء خاصة ، ومختلف عن النظام الذي شاع في سائر مناطق بلاد الرافدين خلال الألف الثالث ومطلع الألف الثاني ق.م . فقد تمت في مدن بلادي سومر وأكد تسمية السنة حسب حدث سياسي أو ديني مهم حصل خلالها ، على نحو " السنة التي دمّر الملك خلالها مدينة ... " . أما في آشور فقد سُميت السنة باسم شخص ذي نفوذ ، ومن وجهاء المجتمع أو من كبار الشخصيات الإدارية ، ويكون بمنزلة والٍ أو حاكم فخري ، تطلق عليه تسمية " ليمو " . وأصل هذا النظام التأريخي غير واضح ، ويجري الافتراض أنه يعود إلى تقاليد بدوية ، حيث كان دور القيادة ، خلال فترة زمنية محددة ، يوكل كل مرة إلى فرد من إحدى العشائر أو القبائل .

والمعايير التي كانت تُعتمد في اختيار أولئك الولاة الفخريين سنة بعد سنة ، غير واضحة خلال التاريخ الآشوري المبكر . أما خلال النصف الثاني من الألف الثاني ق.م وخلال الألف الأول ق.م فقد كان هذا المنصب فخرياً يعهده القصر سنوياً – حسب تسلسل في البلاط الآشوري – إلى أحد الموظفين . وكان استلام ملك جديد العرش يشكل بداية تسلسل جديد في المنصب أيضاً . ومن المفيد أنه وصلتنا جداول منذ العصر الآشوري القديم تتضمن أسماء أولئك الولاة بشكل مرتب ، وتساعد على حساب فترات زمنية طويلة أيضاً .

ك- السيادة السياسية تكليفٌ إلهي :

كان التأكيد على النظام الكوني وحماية الحاكم له مسألة جوهرية في الفكر السياسي الآشوري . وجميع ممارسات الملك ، حتى حملاته العسكرية ، كانت تتم اعتماداً على " أمرٍ من الإله آشور والآلهة الكبرى " ، ولم تكن هناك ضرورة لأي مبرر شرعي آخر . وكان إخضاع شعوب أخرى واحتلال مناطق أخرى يُعدّ تلبيةً لأوامر الحاكم ، ومن ثم فنتائج تلك الأعمال مبررة قانونية .

وقد صوّر الحكام الآشوريون مساعيهم لتحقيق النظام المطلوب بشكل سردي على منحوتات فنية ضمن قصورهم ، وعلى أنصاب حجرية ، ومنحوتات في كتل صخرية أقاموها في أطراف "جهات الكون " التي تشكل حدود المملكة ، أو أمروا

بنقلها إلى هناك . ومازالت المشاهد التصويرية تلك – وبعضها ما زال في موضعه حتى الآن – تدلل على قوة الملوك الآشوريين ، وضعف خصومهم المهزومين .

إن شرعية الاحتلال المستندة إلى أوامر الآلهة لم تخل من الاضطهاد الديني أيضاً ، فقد تم خلاله تدمير معابد ، ونهب تماثيل آلهة . وثمة دلائل تشير إلى قيامهم بنصب تماثيل آلهة آشورية في المناطق المحتلة ، ولكن يبدو أن هذه الإجراءات لم تكن تهدف إلى فرض معتقدات آشورية خاصة ، وذلك لأننا نعلم أنه لم تكن هناك معابد للإله آشور ، خارج مدينة آشور ، طوال المراحل المختلفة التي مرت بها المملكة .

كما لا توجد دلائل مقنعة على شيوع مذاهب دينية خاصة منظمة لدى طبقة الحكام ، ولا على نمط من أنماط تقديس الحكام ؛ على غرار ممارسات التقديس التي خُصّت به شخصية القيصر في العصر الروماني . ولذلك لا يمكن الحديث إطلاقاً عن قيام الملوك الآشوريين بفرض معتقدات دينية معينة .

إن تطور مدينة آشور من مركز تجاري إلى عاصمة مملكة آشورية كبرى كان نتيجة عوامل سياسية ؛ مدنية وعسكرية ، أسفرت عن تبدلات تاريخية متنوعة ومعقدة .

* * *

الجدول الأول : لمحة عن تاريخ آشور

التاريخ	جنوبي بلاد الرافدين	آشور
القرون 28-24 ق.م	دول مدن السلالات الباكرة	آشور ؟
القرنان 22/23 ق.م	حكام مملكة أكّد	آشور جزء من مملكة أكّد
نهاية القرن 22 والقرن 21 ق.م	حكام سلالة أور الثالثة	آشور مقاطعة تابعة لحكام أور
نهاية القرن 21 حتى نهاية القرن 17 ق.م	سيادة سلالات الحكم في المدن : إيسين ، لارسا ، إشنونا ، أوروك ، بابل ، ماري	– سلالة حاكمة مستقلة في آشور – العصر الآشوري القديم – القرنان 19/20 ق.م : آشور مركز شبكة تجارية إقليمية
من القرن 16 حتى مطلع القرن 12 ق.م	الحكم الكاشي في جنوبي بلاد الرافدين	– القرنان 16، 15 ق.م : الحكم الميتّاني في أجزاء واسعة من شمالي بلاد الرافدين – العصر الآشوري الوسيط – تحوّل آشور مع مطلع القرن 14 ق.م إلى مركز مملكة " بلاد آشور "
من أواسط القرن 12 والقرن 11 ق.م	– حكم سلالة إيسين الثانية – انتشار القبائل الآرامية	انتشار القبائل الآرامية
الألف الأول ق.م	سلالات عدة تحكم بلاد بابل	– العصر الآشوري الحديث – انتظام حركة الحملات التوسعية للمملكة الآشورية
بدءاً من أواسط القرن 8 ق.م	الاحتلال الآشوري لمناطق واسعة من بلاد بابل	تحول بلاد آشور إلى مملكة عظمى
أواخر القرن 7 ق.م	التحرر من السيادة الآشورية، حملات توسعية ، حكم السلالة الكَلْدية في بلاد بابل	– هزيمة آخر ملوك آشور أمام قوات التحالف البابلي — الميدي . – 609 ق.م : انتهاء وجود آشور كقوة سياسية عظمى .

الجدول الثاني : ملوك آشور خلال العصرين الآشوري الوسيط والحديث

آشور نيراري الثاني	1414 – 1408 ق.م
آشور بل نيشيشو	1407 – 1399 ق.م
آشور ريم نيشيشو	1398 – 1391 ق.م
آشور نادن أخي	1390 – 1381 ق.م
إريبا أدد الأول	1380 – 1354 ق.م
آشور أُبَلّط الأول	1353 – 1318 ق.م
إلّيل نيراري	1317 – 1308 ق.م
أريك دِن إيلي	1307 – 1296 ق.م
أدد نيراري الأول	1295 – 1264 ق.م
شلمنصر الأول	1263 – 1234 ق.م
توكولتي نينورتا الأول	1233 – 1197 ق.م
آشور نادن أبلي	1196 – 1193 ق.م
آشور نيراري الثالث	1192 – 1187 ق.م
إلّيل كودوري أُصُر	1186 – 1182 ق.م
نينورتا أبل إكور	1181 – 1169 ق.م
آشور دان الأول	1168 – 1133 ق.م
نينورتا توكول آشور	1133 - ؟ ق.م
آشور ريشا إشي الأول	1132 – 1115 ق.م
تجلت فليسر الأول	1114 – 1076 ق.م
أشَريد أبل إكور	1075 – 1074 ق.م
آشور بل كالا	1073 – 1056 ق.م
إريبا أدد الثاني	1055 – 1054 ق.م
شمشي أدد الرابع	1053 – 1050 ق.م
آشور ناصربال الأول	1049 – 1031 ق.م

شلمنصر الثاني	1030 – 1019 ق.م
آشور نيراري الرابع	1018 – 1013 ق.م
آشور رابي الثاني	1012 – 972 ق.م
آشور ريشا إشي الثاني	972 – 967 ق.م
تجلت فليسر الثاني	966 – 935 ق.م
آشور دان الثاني	934 – 912 ق.م
أدد نيراري الثاني	911 – 891 ق.م
توكولتي نينورتا الثاني	890 – 884 ق.م
آشور ناصربال الثاني	883 – 859 ق.م
شلمنصر الثالث	858 – 824 ق.م
شمشي أدد الخامس	823 – 810 ق.م
أدد نيراري الثالث	809 – 783 ق.م
شلمنصر الرابع	782 – 772 ق.م
آشور دان الثالث	771 – 755 ق.م
آشور نيراري الخامس	754 – 745 ق.م
تجلت فليسر الثالث	744 – 727 ق.م
شلمنصر الخامس	726 – 722 ق.م
سرجون الثاني	722 – 705 ق.م
سنحريب	704 – 681 ق.م
أسرحدون	680 – 669 ق.م
آشور بانيبال	668 – 627/631 ؟ ق.م
آشور إتل إيلاني	627 – 625 ؟ ق.م
سين شر إشكُن	627/629 – 612 ق.م
آشور أُبلّط الثاني	612 – 609 ق.م

المراجع الأساسية

W. Andrae . Das wiedererstandene Assur. 2. durchges . und erw . Aufl . hrsg. v.B.Hrouda . München 1977 .

W. Andrae, Lebenserinnerungen eines Ausgräbers . 2. Aufl. Berlin 1988 .

A. Bagg , Assyrische Wasserbauten . Mainz 2000 .

M. S. B. Damerji , Gräber Assyrischer Königinnen aus Nimrud . Mainz 1999 .

G. Dercksen (Hrsg.), Trade and Finance in Ancient Mesopotamia. Leiden 1999 .

E. Heinrich , Tempel und Heiligtümer im alten Mesopotamien . Berlin 1982 .

E. Heinrich , Die Paläste im alten Mesopotamien . Berlin 1984 .

B. Hrouda (Hrsg.) , Der Alte Orient . Geschichte und Kultur des alten Vorderasien . Gütersloh 1991 .

H. Klengel (Hrsg.), Kulturgeschichte des alten Vorderasien. Berlin 1989 .

H. Kühne (Hrsg.) , Die rezente Umwelt von Tall Šeh Hamad und Daten zur Umweltrekonstruktion der Assyrische Stadt Dur-Katlimmu . Berichte der Ausgrabung Tall Šeh Hamad/Dur-Katlimmu 1 . Berlin 1991 .

A. Kuhrt , The Ancient Near East ca. 3000-330 BC. London 1995 .

M. T. Larsen , The Conquest of Assyria . Excavations in an Antique Land 1840-1860 . London , New York 1996 .

S. Maul, Die Inschriften von Tall Bderi . Berliner Beiträge zum Vorderen Orient Texte 2 . Berlin 1992 .

S. Maul, 1903-1914 : Assur. Das Herz eines Weltreiches, in : G. Wilhelm (Hrsg.) Zwischen Tigris und Nil . 100 Jahre Ausgrabungen der Deutschen Orient-Gesellschaft in Vorderasien und Ägypten . Mainz 1998 .

H. –J.Nissen , Grundzüge einer Geschichte der Frühzeit des Vorderen Orients . Darmstadt , 3. Aufl . 1995 .

H. –J.Nissen , Geschichte Alt-Vorderasiens . München 1999 .

H. Onasch , Die assyrischen Eroberungen Ägyptens . Wiesbaden 1994 .

W. Orthmann , Der Alte Orient . Propyläen Kunstgeschichte Band 14 . Berlin 1975 .

S. Parpola , R. M. Whiting (Hrsg.) , Assyria 1995 . Proceedings of the 10th Anniversary Symposium of the Neo-Assyrian Text Corpus Project . Helsinki 1997 .

K. Radner , Die neuassyrischen Privatrechtsurkunden als Quelle für Mensch und Umwelt . Helsinki 1997 .

P. Matthiae , Geschhichte der Kunst in Alten Orient 1000-330 v. Chr. Die Großreiche der Assyrer, Neubabylonier und Achämeniden. Darmstadt 1996 .

M. Roaf , Mesopotamien . Kunst , Geschichte und Lebensformen . In der Reihe : Bildatlas der Weltkulturen . Augsburg 1991 .

M. Salvini , Geschichte und kultur der Urartäer . Darmstadt 1995 .

R. –B. Wartke , Urartu . Das Reich am Ararat . Mainz 1993 .

G. Wilhelm , Grundzüge der Geschichte und Kultur der Hurriter . Darmstadt 1982 .

ونجد نماذج مهمة ، متنوعة الموضوعات، من الوثائق الكتابية الآشورية في السلسلة التي يصدرها و. كايزر ، بدءاً من 1982م ، وهي :

O. Kaiser (Hrsg.) Texte aus der Umwelt des Alten Testament. Gütersloh .

Band I : Rechts – und Wirtschaftsurkunden .
Historisch – chronologische Texte .

Band II : Orakel , Rituale , Bau – und Votivinschriften .
Lieder und Gebete .

Band III : Weisheitstexte , Mythen und Epen .

المحتوى

صدر عن الدار

- شرفنامه: الجزء الأول: في تاريخ الدول والإمارات الكردية، تأليف: الأمير شرف خان البدليسي، ترجمة: محمد علي عوني.
- شرفنامه: الجزء الثاني: في تاريخ سلاطين آل عثمان ومعاصريهم من حكام إيران وتوران. تأليف: شرف خان البدليسي، ترجمة: محمد علي عوني
- قواعد اللغة الكردية، تأليف: رشيد كورد.
- تعلم اللغة الكردية، إعداد: عباس اسماعيل.
- مع روائع جكرخوين الشعرية، إعداد وتقديم: عبد الوهاب الكُرمي.
- شذى الطفولة في سانات، أحوال قرية مسيحية في كردستان العراق، مذكرات: أفرام عيسى يوسف، ترجمة: نزار آغري
- كان يا ما كان، قراءة في حكايات كردية، تأليف: نزار آغري.
- تل حلف والمنقب الأثري فون أوبنهايم، تأليف: ناديا خوليديس — لوتس مارتين، ترجمة: د. فاروق إسماعيل.
- حينما في العُلى، قصة الخليقة البابلية، الترجمة الكاملة للنص المسماري للأسطورة، الدكتور نائل حنون.
- مشاهير الكرد وكردستان في العهد الإسلامي 2/1، تأليف: العلامة المرحوم محمد أمين زكي بك، ترجمة: سانحة خانم، راجعه وأضاف إليه محمد علي عوني.
- القبائل الكردية في الإمبراطورية العثمانية، مارك سايكس، ترجمة: أ د. خليل علي مراد، تقديم ومراجعة وتعليق: أ د. عبد الفتاح علي البوتاني.
- هكذا عشت في سوريا، في شاغر بازار وتل براك وتل أبيض، مذكرات، أغاثا كريستي، ترجمة: توفيق الحسيني.
- القاموس المنير (Ferhenga Ronak)، كردي — عربي، إعداد: سيف الدين عبدو.
- اللغة كائن حي، رؤية ونظرة فكرية حول اللغة الكردية انموذجاً، د. آزاد حموتو.

- أسرة بابان الكردية، شجرتها التاريخية وتسلسل أجيالها، إعداد: إياد بابان.
- حقيقة السومريين، ودراسات أخرى في علم الآثار والنصوص المسمارية، تأليف: د. نائل حنون.
- قاموس روسي ـ عربي مدرسي، إعداد: جلال العبدلله.
- اتجاهات الخطاب النقدي العربي وأزمة التجريب، د. عبد الواسع الحميري.
- خطاب الضدّ، مفهومه، نشأته، آلياته، مجالات عمله، د. عبد الواسع الحميري.
- تاريخ الاصلاحات والتنظيمات في الدولة العثمانية، تأيف: انكه لهارد، ترجمة: أ. د. محمود عامر.
- بلاد الشام في ظل الدولة المملوكية الثانية (دولة الجراكسة البرجية)، 1381 – 1517، تأليف: د. فيصل الشلّي.
- العراق، دراسة في التطورات السياسية الداخلية، 14 تموز 1958 – 8 شباط 1963، أ. د. عبد الفتاح علي البوتاني.
- إسهام علماء كردستان العراق في الثقافة الإسلامية خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين – الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، د. محمد زكي البرواري.
- سعيد النورسي، حركته ومشروعه الإصلاحي في تركيا 1876-1960 م، د. آزاد سعيد سمو.
- أيام فيما بعد، قصص، تأليف: وجيهة عبد الرحمن سعيد.
- مم و زين، أحمد خاني، شرح وترجمة: جان دوست.
- حيث الصمت يحتضر، مجموعة شعرية، نارين عمر سيف الدين.
- فرامل لعجلات طائشة في الهواء، مجموعة شعرية، بن يونس ماجن.
- بوراق، رواية، تأليف: بيان سلمان.
- تلك الغيمة الساكنة (سيرة هجرة)، تأليف: بيان سلمان.
- الإيزيديون، نشأتهم، عقائدهم، كتابهم المقدس، توفيق الحسيني.

- عيد نوروز، الأصل التاريخي والأسطورة، إعداد : عبد الكريم شاهين.
- أنطولوجيا شعراء النمسا، ترجمة وإعداد : بدل رفو مزوري.
- جولة وجدانية مع القصائد النورانية، للشيخ نور الدين البريفكاني. تقديم وشرح وتعليق: عبد الوهاب الكُرمي.

تحت الطبع

- نوبهار، قاموس كردي – عربي. للشيخ أحمد خاني، إعداد وتقديم: قاسم عبد الله.
- شوقاً إليك، أبليتُ الزَّناجيرَ، مجموعة شعرية، ترجمة: عبدالرحمن عفيف.
- الكورد والأحداث الوطنية في العراق خلال العهد الملكي 1921-1958 م.
- *موقف علماء كوردستان العراق من الخلافة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني 1293-1327هـ / 1876-1909م.*
- فقه اللغة الكردي، النظرية العامة، قاسم عبد الله.
- مشكلة الاتحاد والتعالي في عقيدة الشيخ محي الدين بن عربي، الأخضر قويدري.
- درامية النص الشعري الحديث، علي قاسم.
- التصوف في العراق ودوره في البناء الفكري للحضارة الإسلامية، د. ياسين حسن الويسي.
- تحليل الخطاب الروائي، مقاربة بنيوية سيميائية في رواية نجمة لكاتب ياسين.
- الملاّ الجزري، شرح ونقد لمختارات من ديوانه، عبد الوهاب الكُرمي.
- بخار ذهبي، شيركو بيكه س، منتخبات شعرية، ترجمة: مجموعة من الأدباء الكرد.
- تاريخ السليمانية وأنحائها، العلامة محمد أمين زكي بك، ترجمة: محمد جميل بندى الروژبياني.



كتاب صغير في حجمه

كبير في فائدته

شامل في معلوماته

يفيد المختصين والمهتمين بحضارات الشرق

المؤلفة: أستاذة اللغات والحضارات الشرقية القديمة في جامعة برلين الحرة.

المترجم: أستاذ اللغات والحضارات الشرقية القديمة في جامعة حلب.



تاريخ الآشوريين القديم



للطباعة والنشر والتوزيع

